عقيدة

السَّلام

وحيد الدين خان

نقله إلى العربية

بسام عثمان أحمد أبو زيد



عقيدة السّلام

وحيد الدين خان

نقله إلى العربية
بسام عثمان أحمد أبو زيد



Original Title
The Ideology of Peace

Author:
Maulana Wahiduddin Khan

ISBN-13: 978-81-7898-129-7

ح شركة العبيكان للتعليم، 1434هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

خان، وحيد الدين

عقيدة السلام. /وحيد الدين خان؛

بسام عثمان أحمد أبو زيد - الرياض 1434هـ

136 ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 5 - 525 - 503 - 603 - 978

1 - الإسلام -مبادئ عامة　　2 - الأخلاق الإسلامية

أ. أبو زيد، بسام (مترجم)　　ب. العنوان

ديوي: 211　　رقم الإيداع: 4787 / 1434

الطبعة العربية الأولى 1437هـ - 2016م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

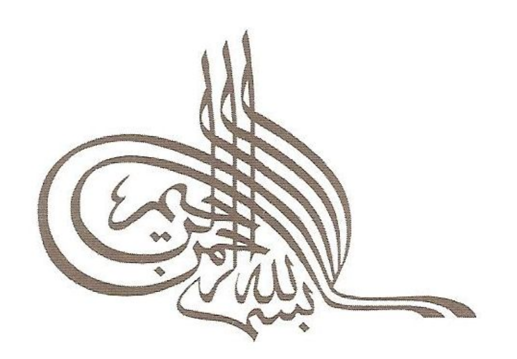
متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595


بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة المحتويات

مقدّمة

إنّ السّلام ليس مجرّد موضوع أكاديميّ في نظري؛ إنه هدف وجوديّ، ولطالما حلمت بالسّلام بقدر ما أتذكّر. أستطيع القول بكل صدق: إنني ولدت مسالمًا، وأحيا حياة محبّة للسلام، حياة طالما كانت مصدرًا للعزاء الروحيّ عندي. وباختصار، فإنّ مهمّة حياتي قد تُسمى مهمّة سلام.

وبطبيعتي، فقد كنت دائمًا نباتيًّا. إن القتل والعنف أمران كريهان في طبيعتي الفطريّة، إنني أشعر بأنّ مثل هذه الأفعال قد لا تكون متوافقة مع جيناتي الوراثية. ولربّما ولدت بمثل هذه الطبيعة التي تجعلني حسّاسًا جدًّا تجاه هذه المسألة؛ لكي ألاحظ أهميّتها، وأمارس دوري كاملًا في مهمّة السّلام هذه.

لقد عرفني الجميع طيلة حياتي شخصًا مسالمًا، محبًّا للسلام. وفعلًا، فإنّ أيّ حدث عنف كان يؤثر فيّ لدرجة تجعلني أبكي، سواء حدث ذلك العنف في وطني أم في خارجه، وسواء كان الضحايا معروفين أم غير معروفين لدي.

لقد صادفت كثيرًا من مثل هذه الحوادث في حياتي. وسأسرد إحداها لتوضيح وجهة نظري.

في أحد الأيّام، عندما كنت شابًّا، أراد أخي الأكبر وأصدقاؤه الخروج في رحلة صيد، وقد أصرّ أن أذهب معهم حينئذ، بحيث لم يترك لي خيارًا آخرَ. آنذاك انطلقنا في سيارتين، وبعد مضيّ قُرابة الساعتين، مررنا بأطراف المدينة وحقولها وبساتينها، عندئذٍ ابتدأ أخي بصيد الطيور الموجودة في

أعالي الأشجار، ثمّ إنّ أخي وأصدقاءه أعطوني بندقيّة، وطلبوا إليّ أن أصوّب على طائر جالس على قمّة شجرة، وقد فعلت ما طلبوا؛ حيث ثبّتّ البندقيّة بكتفي، وصوّبت على الطائر. ولكن، وحين أصبح الطائر في مدى رمايتي تمامًا، انتابني شعور غريب بعدم الراحة، بحيث لم أتمكّن من الضغط على الزّناد، فعمدت إلى تسليم البندقيّة إلى أخي. بعد ذلك، شعرت بثقل في صدري؛ فاستأذنت أخي وأبناء عمومتي في المشي قليلًا، وما إن ابتعدت عنهم مسافة لا تسمح لهم برؤيتي، حتى ركبت حافلة وعدت إلى المنزل في (الله أباد). إنني مسالم، لكنّ سلميّتي ليست ذات طبيعة استراتيجيّة، وهي ليست صيغة لتبرير الدعم في حالة والمعارضة في حالة أخرى.

إنّ سِلْمِيَّتي تمتدّ إلى البشريّة كافة؛ حيث إنّ لها قيمة إيجابيّة بكلّ ما تعنيه الكلمة. إنها جيّدة بالمطلق، وهي تبني عندي قاعدة الخير كله؛ فهي ليست نظريّة مجرّدة، بل إنها جزء من لحمي ودمي، وهي ألم قلبي. ومن ثَمّ فهي حياتي وصوت روحي. لقد رويت نبتة السّلام بدموعي، وعشت حياتي كاملة لأجل قضيّة السّلام، وأريد أخيرًا أن أموت لأجل هذه القضيّة.

لقد ابتدأت المرحلة العامة لمهمّتي للسلام في الثامن والعشرين من شباط 1955م، عندما انعقد اجتماع عامّ في مدينة لكناو التاريخيّة؛ إذ ألقيت في ذلك الاجتماع خطابًا ابتدأ بالكلمات الآتية: (إننا نقف على عتبة عهد جديد؛ عهد سيُسمّيهِ المؤرّخون مستقبلًا العهد الذرّي، ولكن قد لا ينجو أيّ من أولئك المؤرّخين ليروي حكاية دمار البشريّة). لقد نُشر هذا الخطاب عام 1955م على صورة كتيّب بعنوان: على عتبة عهد جديد.

وبعد الحرب العالميّة الثانية، غطت الكآبة نصف القرن اللاحق خوفًا من خطر الحرب الذريّة. ومعَ هذا، فإننا ننعم بطمأنينة كبيرة؛ كوننا دخلنا عتبات القرن الواحد والعشرين، والأمـل يملؤنا بتفادي خطر الحـرب الذريّة، وأنّ عهدًا جديدًا للسلام قد ابتدأ فـي أرجاء العالم كلّه. إنّ هـذا الكتاب هديّة للجيل الجديد من رجل محبّ للسـلام، يحاول فيه أن يعرض عقيدة حياة كاملة تستند إلى السّلام، يمكن تلخيصها في هذه الكلمات: إنّ السّلام ليس خيارًا: إنه قدرنا. فإمّـا أن نعيش في سلام أو ندمـر أنفسنا بتركه. وممّا لا يمكن إنكاره في هـذا العالـم أنّ المستقبل للسلام فقط، ولـن يكون هناك مستقبل للحرب والعنف.

وحيد الدين خان

نيودلهي

19 تموز 2002م

الفصل الأول: عقيدة السّلام

على الرّغم منْ أنّ التّاريخ يحفلُ بدعاةِ السّلام، فإنّ مِنَ الصّعب أنْ نَجد بين طيّاتهِ مُفكّرًا أو داعية كانتْ لديهِ القدرةُ على إبراز مفهوم السّلام فِكرًا وعقيدةً كاملةً متكاملةً. ولعلّ هذا على مرّ العُصورِ، كانَ السّببَ الحقيقيّ وراءَ عدم تقديم المفهومِ الدّقيقِ للكلمةِ والمبنيّ علـى أسسِ السّلام. ومع وجودِ عددٍ لا بأسَ بهِ منْ محبي السّلام، فإنّ تأسيس مجتمعٍ مسالم على نطاقٍ واسع لم يصبح قطّ حقيقةً ملموسةً. ولعلّ حقيقة أنّ مصالح الإنسان تترافق دائمًا معَ وجود السّلام، هي سبب رغبة كلّ فردٍ في المجتمع في الحصول على بيئة مسالمة وحياة آمنة تحقيقًا لمصالحه الشّخصيّة.

لكنه يواجه، وعلى نحو متكرّر، مثـل هذه الحالات المتنوّعة، بحيث يحتاج إلى عقيدةٍ للسلام ليهتدي بها. أمّا أنّ السّلام حاجة بشريّة، فإنّ هذا لا يجعله كافيًا ليمارس سياسة ضبط النفس، وأن يبقى مسالمًا في الحالات جميعها؛ فهو بحاجة إلى عقيدة تقنعه، وعلى مستوى الإدراك بضرورة المحافظة على السّلام في الأوقات كلّها.

نستطيع أن نجد أمثلة على هذا من تاريخنا البشريّ. ولنأخذ الديمقراطيّة مثالاً. فلطالما دافع الإنسان على نحو فطريّ عن فكرة التنظيم الديمقراطيّ، والأمثلة من التاريخ البشريّ موجودة؛ حيـث أُسِّس مثل هذا النظام بنجاح، ولو على نحو جزئيّ. ولكنّ وصول ثورة كاملة مبنيّة على أسس الديمقراطيّة أصبح حقيقة فقط، عندما قدّم مفكرو أوروبا الحديثة هذه الآمال والطموحات البشريّة على شكل عقيدة متكاملة.

وحالة السّلام هي حالة مشابهة هنا؛ حيث إنّ السّلام كان يُعَدّ حاجة بشريّة لمختلف العصور. ومعَ هذا، وفي الوقت الحالي، فـإنّ السّلام أصبحَ حاجةً ماسةً لبقاء الجنس البشريّ؛ حيث إنه أصبح فعليًّـا مسألة حياة للبشريّة أو موت. فالسّلام يعني الحياة، وغيابه يعني الموت.

إنّ هدف الكاتب هنا هو أن يقدّم السّلام في صورة عقيدة متكاملة، عقيدة توقظ الوعي البشريّ- عقيدة قادرة على توفير الحلول المستقاة من السّلام لمشكلات الحياة كلها، وقادرة أيضًا على وصف الأهميّة الملحّة للسلام بدءًا من مستوى الفرد، ووصولاً إلى مستوى المجتمع. وبذا، فإنّ السّلام هو متطلب السابق لكلّ أنواع التقدّم البشريّ. فبالسّلام نتقدّم، ومن دونه يكون الدمار.

إذن، ما ضرورة وجود عقيدة للسلام؟

هناك سببان رئيسان لذلك. فعندما يؤكّد الإنســان هدفًا ما، فإنّه يتبنّى عاملاً معيّنًا ويهمل آخرَ. وهذا يحدث بالاقتناع فقط في حال توافر التسويغ النظريّ الواضح. ومن غير هذا، فإنّ الإنســان لا يستطيع أن يكون متحمّسًا لقبول أو رفض أيّ مفهوم أو ممارسة. مثـلًا، إذا اقتنعت مجموعة معيّنة أنّ حقوقهم قد اغتصبـت، وأن عليهم من أجـل رفع الظلم عنهـم اللجوء إلى العنف، فسوف يكون مـن المستحيل جعلهم يعدلون عـن رأيهم، ما لم نكن قادرين أن نثبت بحجج قوية أنّ العنف ليس السبيل إلى حلّ مشكلاتهم، وأنّ مثل هذا المسار لن يؤدي إلا إلى زيادة تفاقم الأمور، ولن يعيد إليهم حقوقهم. ولاستدراج هؤلاء الأفراد إلى طريق السّلام؛ لابدّ من إقناعهم بعقيدة تستند إلى المنطق، مفادها أنّ تحقيـق أهدافهم لا يكـون إلا بالتخلي عن العنف، وخوض نضالهـم بالطرق السلمية. إننـا نحتاج إلى عقيـدة تمنحنا الأُسس المنطقيّة التي تقنعنا بضرورة رفض أسلوب وتبنّي آخرَ.

فالإنسان يستطيع إنجـاز أيّ مهمّة معطـاة إذا ما توافـرت لديه القناعة الفكريّة بمصداقيّة تطبيقها وعملها. إنها عقيـدة تمنح الإنسان الضمانات المناسبـة، وإلا كانـت النتائج مثبّطـة وعكسيّة بغيـاب الطاقـة الضروريّة والحماسة، وهما العنصران الأساسيّان لنجاح أيّ مقاومة، وانتصار أيّ كفاح.

وفي السياق نفسه، فـإنّ الشجاعة هي المحفّز الأقوى فـي رحلة الحياة. فالإنسان القويّ يستطيع تسلق قمم الجبال، ومن يفتقر إلى الشجاعة يصعب عليه السير حتى في الطرق الممهّدة. ولكن، ما مصدر الشجاعة للإنسان؟ إنها أيضًا عقيدة تزوّد الإنسان بالشجاعة ليسلك درب السّلام. لقد قيل: (إنّ الإنسان حيوان عاقل)، وقيل أيضًا: (الإنســان حيوان يسعى إلى التفسير). وكلا القولين هنـا يشيران إلـى النقطة نفسها، وهـي: أنّ الإنســان يستقي إشباعه العقلي من أفعاله فقط حينما تكون أهدافه قد تأسّست بصفتها حقًّا له، وبصورة مبنيّة على الخطاب العقلانـيّ. إنّ محاولة تطوير عقيدة كاملة مبنيّة على أسس السّلام هي بأهميّة السّلام نفسه، والعكس صحيح؛ فكلاهما مترابط، ولا تعيش إحداهما من غير الأخرى.

إنّ مثل هذا العنف الذي نشهده في الوقت الحالي من. لقد تسببت حروب الدمار والعنف التي تشنها مجموعات غير شرعية في صور لا مثيل له في كل العصور حرب عصابـات أو حرب بالوكالة في الجـاف أذى كبيرًا للبشريّة، ووقف في طريق تقدّمها وازدهارها، وهذه حقيقة يعيشها سكان الأرض كلّهم. ولكن، كيف يمكن تفسير هذا؟ إنّ السبب واضح: فالناس لا يمتلكون عقيدة كاملة تفضّل السّلام، في حين يبقى التفسير الوحيد لممارسة العنف هو قوّة مشاعر العامّة وغضبهم؛ فعندما يشعر ناشـط بالحاجة إلى أن يكون قائدًا للعالم، أو عندما يُستثار مجتمع للانتقام لما أصابه من خسائر ومعاناة، فإنه

لا حاجة حينئذٍ إلى أي تبرير منطقيّ أو عقلانيّ للعدائية. إنّ قوّة المشاعر والعاطفة تكفي لتحريك القادة وأتباعهم على حد سواء، ولكن عندما يكون الحديث عن السّلام، واتّباع أساليبَ سلميّة لطرح الحلول، فإنّ هذا يكون ممكنًا فقط إذا كان هنالك تبرير قويّ للسلام. ففي حين يعدّ العنف فطريًّا، فإنّ السّلام يحتاج إلى انضباط عقلي، وقدرة على التحكم في النفس، فالكلّ يريد إثبات نفسه بنفيه للآخرين. وعليه، فكلّ ما نحتاج هو إليه انفجار عاطفيّ قصير كافٍ للمضيّ قدُمًا بالعنف. على خلاف الأفعال السلميّة التي تحتاج إلى فكر جديّ لتتكامل.

إنّ الحلّ الوحيد لهذه المعضلة يكمن في امتلاك الإنسان عقيدة كاملة وشاملة للسلام. ولعلّ المشكلة الفعليّة لأيّامنا هذه هي عدم وجود مثل هذه العقيدة على أرض الواقع. وهنا نطرح السؤال الآتي: لماذا هذا الجانب السلبيّ في النفس البشريّة؟

إنّ هذا مرتبط بسنة الله في خلقه، ولا يمكن فهم هذا الجانب إلا إذا ربطنا ذلك بمشيئة الله في خلقه. إن هذه الدنيا هي أرض الاختبار التي صمّمها الخالق للبشريّة؛ حيث منح الخالق الحريّة التامّة في هذا العالم، وهي حريّة لم يكن القصد منها التسبب في الفضوى، بل كان هدفها بيان إن كان باستطاعة الإنسان المضيّ في حياة منضبطة على الرغم من الحرية الكاملة التي مُنحت له. إنّ على الإنسان أن يرتقي بنفسه من المستوى غير الأخلاقيّ للحيوان إلى المستوى الأخلاقيّ للبشر.

وعلى الرّغم من ممارسته مشاعر الغضب والكراهية، ووجود الحافز لممارسة العنف، فإنّ عليه أنْ يصبح حاضنًا للحبّ والسّلام. وعندما تأكل

المشاعر السلبيّة قلبه، فإنّ عليه أن يكون قادرًا على التخلص منها، ويرتقي بنفسه إلى مستوى المفكر الإيجابيّ.

باختصـار، فعلى الرّغم من امتلاك الإنسان الحريّةَ الكاملة، فإنّ عليه وبإرادته الشخصيّة أن يكون مثالًا للسلوك المنضبط والخلق السويّ، والإنسان الذي يقود نفسه بانضباط يكون قد اجتاز اختبار الخالق، وأولئك الذين يتصرّفون بهذه الطريقة هم فقط الذين سيختارهم الله تعالى، خالق هذا الكون وحافظه؛ ليتمتعوا برحمته في جنّات الخلد.

إنّ دراسة علم النفس تخبرنا بأنّ الإنسان بطبعه محبّ للذات، وكلما تأذّت هذه (الأنا)، فإنّ ردّة فعل عدائيّة تنتج، ومن ثم تتطوّر إلى كراهية ورغبة في اللجوء إلى ممارسة العنف. علمًا بأنّ هذه النقطة قد تناولها بوضوح الكاتب (C.M.Joad)، في كتابه (الشرّ المعاصر) The Modern Wickedness، وهي نقطة الضعف النفسيّة في النفس البشريّة، التي تعزى إليها حقيقة أنّ الاختلافات تأخذ غالبًا شكل الكراهية، التي بدورها تقود إلى العنف على نحو متكرّر.

إنّ هذا كله يُظهر أنّ العنف ليس في حاجة إلى أيّ عقيدة؛ فالعنف يظهر ويشتعل ذاتيًا، مع أنه فيما يخصّ السّلام الاختيارُ الذي نتبنّاه نحن بأيدينا. وبذا، فإنّ السّلام يحتاج إلى كفاح إيجابيّ، وتصميم قويّ من خلال عقيدة واضحة متكاملة.

إنّ الاستعدادَ للمحافظة على السّلام - مسألة اتخاذ قرارٍ واعٍ - مزية بشريّة نبيلة. أمّا السّلام، فإنّ على الإنسان أن يَحُدَّ من غضبه وأن يكون متسامحًا، وعليه أن يسيطر على مشاعر الكراهية، وأن ينمّي مشاعر الحب تجاه

الآخرين. فإذا أردنا أن نعمل على استدامة السّلام. فإنّ علينا كبح التفكير السلبيّ والاستعاضة عنه بالتفكير البنّاء. ولكي يصبح السّلام حقيقة فإنّ على الإنسان أن يكون متمنيًا جيّدًا للخير بدلًا من أن يكون صاحب نيّة سيّئة. وعليه، فإنّ الاستفزاز يعدّ كافيًا لانطلاق العنف. ولكن لكي يستمرّ السّلام فإنّ على الإنسان أن يبطل الاستفزاز، ويتحلى بالاعتدال وضبط النفس.

إنّ الإنسان بممارسته للعنف يتبع غرائزه الأساسيّة، ولكن لتعزيز السّلام فإنّ عليه أن يقوم بتغيير أخلاقيّ كامل في نفسه. وليس قبل مثل هذا التحوّل، يستطيع الفرد أن يكون قادرًا على أن يؤدّيَ دور محبّ للسلام.

إنّ الحاجة تكمن في تحويل اللاإسلام إلى السّلام؛ حيث يتمكّن الفرد بعد هذا التحوّل من أن يؤدّي دور الشخص المسالم. ولهذا السبب، فإنّ عقيدة شاملة للسلام تكون ضروريّة، والشيء الأكيد أنّ هذا لن يتحقق بإطلاق النداءات والتصريحات؛ لأنها لن تقنع الناس بتبني الوسائل السلميّة.

ولقد حملت الأحداث التاريخيّة مثل هذا كما في خبرتي الشخصيّة؛ إذ كنت منخرطًا في مهمّة سلام للسنوات الخمس عشرة الأخيرة، وأستطيع القول وبكل اقتناع: إنّ المئات والألوف من الشباب، الذين -وبإيعاز من عواطفهم- كانوا قد سيقوا للعنف والتشدّد، قد اختبروا ثورة في تفكيرهم بعد استماعهم إلى منطق ما أقوله ودراستهم كتاباتي، وعبر الحجج القويّة، قد صنعت غلبة للسلام. لقد هجر هؤلاء طريق العنف، وتبنوا طريق السّلام.

في المقابل، اكتشفت أنّ هؤلاء الشباب، كانوا قد اعتقدوا وعلى نحو غير صحيح، أنّ العنف مساوٍ للشجاعة، وأنّ الأفعال السلميّة مساوية للجبن. لقد اعتقدوا أنّ بإمكانهم تحقيق كلّ شيء بالعنف، وأنّ الوسائل السلميّة لن تجلب

لهم منفعة. وبهذا الفهم غير الصحيح، اعتقدوا أنّ العنف يعني التقدّم، وأنّ السلم يعني التخلف.

وبعبارات أخرى، فقد كانت لديهم عقيدة (عنـف) لا عقيدة سلام. ومعَ هذا فإنهم أصبحوا مقتنعين بحجج مُفادها أنه لا توجد هناك عقيدة حقيقيّة في صالـح العنف، وأنّ العقيـدة الصحيحة تقف بجانب السّـلام في الواقع الحقيقيّ. إضافة إلى ذلك، فقد أصبح جليًّا لهم أنّ نهج العنف الذي سلكوه؛ لأجل تحقيق التقدّم في مصالحهم كان انتحاريًّا في نهاية المطاف، أما نهج السّلام الذي قاطعوه لاعتقادهم أنه غير منتج، فكان في الحقيقة هو الطريق الصحيح إلى التقدّم.

وبعد هذا الاكتشاف الفكريّ، فقد خضعت حياتهم لتحوّل من كونهم كانوا ناشطي عنف إلى ناشطي سلام. وفي الحقيقة، وفي بقاع مختلفة من العالم، فإنّ هناك عددًا كبيـرًا من الشباب، الذين بعـد أن أصبحوا مدركين تمامًا لحقيقة هذه المسألة قاطعوا العنف في سبيل تسخيرِ طاقاتِهم في مصلحة مجالٍ سلميٍّ في الحياة، مثل: التعلم، والإصلاح الاجتماعيّ، والدعوة للسلام.



الفصل الثاني: السّلام والعنف

لقد عَرّف الباحثون السّلام على أنه غياب الحرب. ومن الناحية الفنيّة فإنّ هذا صحيح؛ إذ حينما لا يكون هناك صراع مسلح في مجتمع، فإنّ حالة السلم تجد نفسها تلقائيًّا. ومعَ هذا، فإنّ تأسيس السلم في مجتمع لا يكون بوضع حدّ للحرب والعنف فقط، وإنما هذا يعدّ المرحلة الأولى في تحقيق السّلام. وكلّما حلّ السّلام في مجتمع بالمعنى الحقيقيّ، فإن أفراده ينخرطون في أنشطة إيجابيّة، ينجم عنها توجيه طاقاتهم كلّها في سبيل إعادة بناء حياتهم الذاتية وبناء بيئتهم الاجتماعيّة.

إنّ إرساء السّلام يمكن تشبيهه بإزالة سدّ من نهر؛ فحياة البشر مثل نهر جارٍ تريد أن تتدفق قدمًا بقوة اندفاعها الذاتية، وحينما لا يكون هناك أيّ عائق، فإنّ أنشطة الحياة جميعها تدبّ فيها الحركة، تدفعها الطبيعة البشريّة نفسها، وتتوقف هذه الحركة فقط حينما توضع حواجز الحرب والعنف المصطنعة أمامها. إنّ السّلام بنتائجه يشبه فتح أبواب الحياة كاملة على مصراعيها.

وفي هذا السياق، فإننا نجد بعضهم يسمّون هذا النوع من السّلام سلبيًّا، فيقولون: إنّ السّلام لا قيمة له ما لم ترافقه العدالة. وهؤلاء إذا عرضنا عليهم السّلام نقيًّا وبسيطًا فإنهم لن يقبلوا به؛ إذ هم يتمسكون بفكرة أنه لابدّ من تقديم العدالة أولًا، ومن ثَمّ الحقوق. وفي المحصلة، فإنّ هؤلاء يستطيعون العيش بسلم معَ الآخرين؛ إذ إنّ (السّلام معَ العدالة) هي كلمة سرّهم. وحقيقة الأمر أنّ هذا يظهر نقصًا في واقعيّة تفكيرهم؛ فالعدالة لا

تتحقّق مباشرة من حالة السلم؛ لأنّ هدف تأسيس السّلام هو في الحقيقة، فتح قنوات لتحقيق العدالة بدلًا من جلبها على نحو واقعيّ إلى حيّز الوجود.

وبالتأكيد، فإنّ السّلام حالة نرغب في وجودها؛ إذ بحلولها تصبح الفرصة مواتية لكلّ شخص ليضع خططه، وينجز ما يشاء. لكنّ أولئك الذين يصرّون على العدالة بأنها شرط يترافق معَ السّـلام لن يتوصلوا إلى السلام ولا إلى العدالة، وسيستمرّون في القتال تحت مسمّى تحقيق العدالة. وبهذه الطريقة فهم لا يسمحـون بإحـلال السّلام الـذي سيزوّدهـم بالظـروف المناسبة لتحقيقها.

عمومًا، يُنظر إلى السّـلام على أنه نقيض الحرب. علمًـا أنّ هذه النظرة ضيّقة؛ فالحقيقة هي أن السّلام ينتمي إلى طيف الحياة الكامل، إنه في حدّ ذاته يعدّ عقيدة كاملـة؛ فهو المفتاح الرئيس الذي يفتـح الأبواب كلّها أمام النجاح، ويمهّد الطريق للجهود المخلصة في الأطياف جميعها. إننا نستطيع في حالة السّلام أن نتعامل معَ أي هدف، ومن غير السّلام فإنه من المستحيل أن نمضي على نحو بنّاء، وهذا ينطبق على مجالات الحياة جميعها؛ الكبيرة منها والصغيرة.

الفرق بين السّلام والعـنف

إنّ السّلام هو نتيجة لأفعال خُطِّطَ لهـا مسبقًا، أمّا العنف -بكلّ بساطة- فهو ردّة فعل عدائيّة لأيّ نوع من الاستفزاز. والشخص المحبّ للسلام يمثل الحقيقة، ويعيش وحبّ الآخرين يملأ قلبـه، إنه يفكر أولًا ومن ثمّ يتصرّف، في حين يمثل الشخـص العنيف الباطل، ويستهلك حقـدُه على الآخرين كلَّ مشاعره، وفعله يسبق تفكيـره. وعليه، فإنّ الأمل يرافـق العمل السلميّ من

البداية إلى النهاية، في حين يترافق العنف معَ آمال غير صحيحة نبتدئ بها ولا يتبعها عاجلًا إلا الإحباط.

إنّ طريق السّلام تأخذ مسلكًا مستويًا من البداية إلى النهاية، مقابل طريق العنف الوعر المليء بالعوائق. والسّلام إنّما يحتوي على البناء، أمّا في العنف فلا نجد غير الدمار. أضف إلى ذلك أنّ السبيل السلمي ينتهي بالنجاح، في حين لا يُحصد في السبيل العدائيّ إلا الندم والإحباط.

وخلاصة الأمر: أنّ طريق السّلام هي طريق الإنسانيّة، وطريق العنف هي طريق الوحشيّة. ففي حين يكون الفعل السلميّ مقبولًا ضمن إطار القانون، فإنّ الفعل العنيف يكون خارجًا على القانون كليًّا. وبذا، فإننا بلجوئنا إلى الوسائل السلميّة لن نخسر شيئًا، بل سنربح كلّ شيء، والخسارة إنّما هي في الوسائل العدائية التي لا ينجم عنها إلا كلّ شرّ وسوء.

ومن هنا، فإنّ الشخص المحبّ للسلام يهمل المشكلات، وينتفع من الفرص المتوافرة، أمّا الشخص المحبّ للعنف فيترك الفرص كلها، ويستمرّ في صراعه معَ المشكلات. وفي الوقت الذي نجني فيه من السلم حديقة من الزهور، فإننا باتباعنا أعمال العنف نغرس غابة كاملة من بذور الحقد والكراهية.

وباختصار، فإنّ ثقافة السّلام هي ثقافة الخير، أمّا ثقافة العنف فهي ثقافة الشرّ؛ ففي السّلام نكرّم حقوق الله وحقوق البشر، مقابل انتهاك حقوق الله وحقوق البشر حيثُ ينتشر العنف. وبذا، فإنْ كان السّلام فردوسًا فإنّ العنف هو الجحيم ذاتها.

ولمّا كانت سبل السّـلام والحرب المتعاكسة مفتوحة أمـام الإنسان، فإنّ السّلام هو الخيار الحقيقي له؛ فالحرب ليست إلا دليلًا على أنه اتخذ الخيار غير الصحيح، وهذا يعني أنه قد فشل في هذا الاختبار. وعليه، فالحقيقة هي أنّ الحرب والعنف ليسا خيارين صالحين لأي فرد أو مجتمع أو أمة.

وعلى الرّغم من أنّ العالم يتوافر فيه كثير من الإغراءات، فإنّ الحقيقة التي لا خلاف فيها أنّ تلك الإغراءات موجودة لتضع الإنسان تحت الاختبار. لذا فإنها ليست مرغوبة للإنسان. فعلى سبيل المثال، الكحول متوافرة، ولكنها ليست صالحـة لاستهلاك البشر، بل هـي على العكس موجـودة لنمتنع عن تناولها، ولنثبت قدرتنا على التمييز بين ما هو خير وما هو شرّ. إنه إغراء، نثبت إذا تجاوزناه أننا حكماء، ونؤكـد كوننا أصحاب مبادئ. والشيء نفسه ينطبق على الحرب، فعلى الرّغم من أنّ طريقها مفتوح للجميع، فإنّ السلوك الأنبل يكون بالامتناع عن اختياره.

لقـد سمحت الظـروف السائدة قديمًا بالحـرب دفاعًا عـن النفس، لكن هذه الرّخصة في الذهاب إلى الحرب توافقت معَ الضرورة. أمّا في الظرف الحاليّ، فإنّ هذه الحاجة لم يعد إليها وجود، لهذا لابدّ من فرض حظر عام على الحرب.

الفرق بين العصرين الزراعيّ والصناعيّ

وفيما يخصّ الحرب، فقد اتفقت الديانات والأنظمة العقديّة جميعها على مبدأ واحد، هو أنه مهما كان المبرّر لشنّها؛ أي حتى لو كانت حربًا مشروعة تمامًا، فإنّ المدنيين غير المقاتلين لا يجب أن يُعتدى عليهم أو يقتلوا؛ إذ إنّ قتل من لا يحمل السلاح عمل غير مقبول نهائيًّا.

دعونا الآن نلقي نظرة على كيفيّة تنفيذ هذا المبدأ في وقت الحرب. إنّ هذا الشرط؛ أي مهاجمة المحاربين فقط، يمكن إنجازه فقط في العصر الزراعيّ. فاليوم، وبفضل التقدّم العلميّ التقنيّ، فإنّ الحرب تشنّ بأسلحة متفجّرة تؤدّي إلى دمار شامل. فحينما تسقط قنبلة على منطقة مأهولة فإنها لا تملك إلا أن تقتل أعدادًا كبيرة من المسلحين وغير المسلحين، ومن ثَمّ فمن المستحيل تقريبًا تحقيق هذا الشرط.

إنّ هذا يظهر عمليًّا أنّ الإنسان في الوقت الحالي أمام خيارين: إمّا أن يمتنع عن الحرب على أساس أنّ شرط احترام الإنسانيّة لا يمكن تطبيقه، أو أن يرتكب الجريمة ملقيًا نفسه بتهوّر في الحرب، متجاهلًا الاعتبارات الإنسانيّة جميعها. وحين نغوص عميقًا في المسألة، فإننا نكتشف حقيقة مهمّة؛ ففي الوقت الحالي، نجد من جهة أنّ هذه الظروف لا تسمح لنا بتلبية الشروط المرغوب فيها كلها لشنّ الحرب، ولكن من جهة أخرى، فإنّ مثل هذه الموارد قد أتيحت بسبب الثورة الصناعيّة لتسمح لنا بتحقيق أهدافنا بوسائلَ سلميّة بحتة. وفعلًا، فإننا نتوقع أن نكسب انتصارات كبيرة اليوم بوسائلَ سلميّة أكثر ممّا كان يمكن تحقيقه بشنّ الحرب في أوقات سابقة. لذا، فإنه يجب التسليم بأنّ الحرب كما كانت تُخاض قديمًا قد باتت عديمة للجدوى بسبب الثورة الصناعيّة الحديثة.

عندما نبقي هذه الحقيقة ماثلة أمامنا، يمكننا بأمان أن نخلص إلى أنّ الحرب العنيفة كانت نتاج الظروف التي كانت سائدة في العصر الزراعيّ. وهذا النوع من الحرب في العصر الصناعيّ، ونظرًا إلى النتائج العكسية، أصبح مرفوضًا من حيثُ المبدأ.

مَعَ نهاية العصر الزراعيّ، وصلتها طريق النضال العنيف إلى نهايتها على الأقلّ نظريًّا، وفي ظلّ الظروف الراهنـة، فإنّ الأسلوب السلميّ هو الأسلوب الوحيد، والآن لا يوجد عذر يبرّر العنف أو الحرب.

يتّضح الفرق بين السّلام والعنف جليًّا عن طريـق بناء عشّ طائر؛ فالعشّ لا يُبنى إلا من خلال جهد سلمـيّ، في حين يدمّره العنـف. وينطبق الشيء نفسه على الحياة البشريّة؛ فـإذا أردنا إنجاز أيّ عمل إبداعيّ فـي الحياة فلابدّ من جهود سلميّة للقيام به. وبذا، فإنّ العنف يدمّر الحياة، ولا يستطيع بناءها أبدًا.

ثمــن السّلام

لكلّ شيء ثمن، حتى السّلام؛ إذ لا يستطيع أيّ فرد أو جماعة الحصول عليه ما لم يكونوا مستعدين ليدفعوا له مقدّمًا. وإن القابليّة لفعل هذا لابدّ لها من معاناة، وحتمًا سينجم عنها خسائر.

بناءً على القانون الذي يحكم نظام العالم الحاليّ، وَوَفقًا لقاعدة (لا مكسب بغير مخاطرة)، فمـن الضروريّ للناسـ أن يتكبّدوا الخسائـر من مختلف الأنواع. ففي أوقات نراهم، على نحو غير عادل، يلقون تحدّيًا من الآخرين؛ ويقعون فريسة الصِعـاب الاقتصاديّة، ويعانون خسائرَ فـي الأرض والمال، ويتعرّضون لحادث أو يُحرمون بعض المنافع التي هي في الأصل حقّ لهم.

إنّ الخبرات غير السارّة من هذا النوع، وَوَفقًا لقانون الطبيعة، يتعرض لها الناس بين حين وآخر في هذا العالم، من أفـراد ومجتمعات وأمم. وإذا لم يكن للناس قابليّة في مثل هذه الظروف لتحمّل الخسارة، فإنّ النتيجة ستكون

هي العنف. ولكن، إذا كانت لديهم القابليّة لتقديم التضحيات، فإنّ النتيجة حتمًا ستكون السّلام.

إن اختيار طريق الصبر والتسامح لا يعني سلوك طريق الهزيمة والتراجع. إنها في الحقيقة خطة نحو المستقبل، تصل إلى حدّ القبول الطوعي للواقع طوعيّ، ما يعني أنه حتى بعد فقدان شيء مـا، على الإنسان أن يتذكّر دائمًا أنه ما زال يمتلك كثيرًا من الأشياء، التـي يستطيع من خلال الاستفادة من إحداها إعادة بناء ما فقده.

إنّ فائدة الصبر والتسامح - وحتى بعد تكبّد الخسائر - هي أنّ الشخص المثكول لا يفقد توازنه. وعلى الرّغم من الهزيمة المؤقتة، فإنه لا يفقد القدرة على التفكير بذهن صافٍ، عن طريق إجراء تقييم واقعيّ لوضعه، والتخطيط لحياته من جديد. وبوساطة نسيان ما ضاع منه، فإنه يعيد تنظيم عمله على أساسِ ما تبقى لديه.

إن من شأن الإحباط أن يعطي أولية للتخطيط الشخص وينطلق الشخص في رحلة حياته من جديد. إنّ المزية الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها في عالمنا هي أنّ الليل دائمًا يعقبه النهار.

إنّ هذا العالم مليء بالاحتمالات والفرص. فهنا، وبعد فقدان فرصة واحدة فإنّ الإنسان سيجد أخرى. وهنا، وعندما يجـد بابًا مُوصَدًا في وجهه، فإنه سيجد أبوابًا أخرى مفتوحة أمامه. وهكذا، هناك دائمًا احتمال أنه بعد فشل مجموعة من الخطط، فإنه قـد يباشرالعمل في مجموعـة أخرى، وفي بناء حياته من جديد. والحقيقة التي لا خِـلاف عليها في هذا العالم أنّ كلّ خبر

سيئ تتبعه أنباء جيّدة. فكلّ حادث ضارّ يحمل لنا بشائرَ جيّدة بأننا لا يجب أن نقع ضحية للإحباط واليأس.

بدلًا من هذا الإحباط وذلك اليأس، فإنه يجب علينا أن نستجمع ما يكفي من الشجاعة للبحث عن الجديد من الفرص. إنّ نظام الطبيعة يخبرنا مقدّمًا بأنّ الحرمان لدينا لن يدوم إلى الأبد، وقريبًا سوف نكون قادرين على بناء عالم أفضل لأنفسنا، وقريبًا أيضًا سوف تكون هزيمتنا بداية انتصار. إنّ أولئك غير القادرين على تحمّل الخسائر يميلون إلى التفكير السلبيّ، وبهذه الطريقة فإنّ حياتهم تصبح عبئًا عليهم وعلى الآخرين. وعلى العكس من ذلك، فإنّ أولئك الذين يمتلكون الصبر، ولديهم الشجاعة حتمًا سيبنون صرحًا جديدًا على أنقاض الماضي؛ فبعد الليل يأتي الفجر، الذي سيتمكنون من أن يكملوا رحلتهم في ضوئه من غير توقف. ومعَ ذلك، فإنّ هذه الغاية النبيلة تنتظر فقط أولئك الذين يمتنعون عن العنف، وينخرطون في أنشطة سلميّة، بغضّ النظر عن الظروف.

السّلام قوّة عظمى

إنّ قوّة السّلام أكبر بكثير من قوّة العنف، ومن لا يدرك هذه الحقيقة فإنه يعتمد مسار العنف من أجل تحقيق أهدافه، ويكون بذلك معبّرًا عن غبائه الشخصيّ.

إنّ السّلام هو طريق الحكيم، في حين أنّ العنف هو طريق الأحمق. والسلم والحرب ليسا مجرّد وضعين متساويين للإنجاز بالمعنى البسيط للعبارة، بل إنهما يشيران إلى معيارين مختلفين للإنسانيّة. وعليه، فإنّ الذي يعتمد

طريق السّلام يرفع مستوى الإنسانيّة، أمّا الذي يتبنّى طريق العنف فيخفضه بلا شكّ.

في الأوقات الصعبة، عندما يختار الفرد طريق السّلام، فإنه يجني ثمار التفكير الإيجابيّ، ويرفع معاييـره الأخلاقيّة، ويذهب من قوّة إلى أخرى في تحسين شخصيّته الذاتية. وفـي الواقع، فإنه يعطي دليـلًا عمليًّا على كونه إنسانًا. وعلى العكس من ذلك، عندما يختار طريق العنف في حلّ المشكلات، فإنه ينزلق أسفل منحدر زلق نحو الهلاك، ويجعلنا نتشكك في إنسانيته.

إنّ الميل نحو السّلام أو العنف يُعَدّ مؤشرًا على شخصيّة الإنسان الحقيقيّة؛ فإذا أثبت الأول إنسانيّة الشخص، فإنّ الأخير يثبت وحشيّته على أنه حيوان برغم مظهره الإنساني.

إنّ السلوك المسالم يدلّ على ضبط النفس، وضبط النفس هو بلا ريب قوّة كبيرة جدًّا؛ فهو يبعد الإنسان عن المشاركـة في أعمال سلبيّة، مثل العنف. ومن لا يملك قوّة ضبط النفس سيغضب إذا تعرّض لاستفزاز، ويلقي بنفسه في أعمال العنف. وبذا، فإنّ السيطرة على غضب المرء هو سبيل الشخص المسالم، في حين أنّ فقـدان سيطرة المرء على نفسه عنـد الاستفزاز هو سبيل الشخص العنيف.

المصالحة هي الأفضل

في أيّ مسألة خلافية، إحدى طرق التسوية أمام كلا الطرفين هي الدخول فـي مواجهة عنيفة. لكـن أفضل طريقـة لتسوية النزاعات هـي في إحداث المصالحة في البداية؛ كون المصالحة تعدّ صمام الأمان في أيّ حالة فيها

مصالحُ متضاربة، وحيث تكون الأعصاب على وشك الانفجار. ولذلك، وفي أوقات الاستفزاز، فإنّ أفضل مسار يمكن اتخاذه هو التصالح بدلًا من مسار المواجهة. إنّ هذا هو قانون الطبيعة. ومعَ ذلك، فإنه نادرًا ما يحدث أنّ مثل هذه المصالحة تعكس تمامًا رغبات كلّ من الطرفين المتنازعين.

في غالبية الحالات، تكون المصالحة ممكنة فقط على أساس أحادي الجانب. وهذا يعني أنّ على طرف من الأطراف المتنازعة أن يقمع ميوله الذاتية، ويظهر استعدادًا لوضع حدّ للنزاع وَفقًا لرغبات الطرف الآخر.

لماذا يكون هذا النوع من المصالحة الأحادي الجانب والأفضل؟ إنّ الفائدة الرئيسة هي، ومن غير إضاعة الطاقة والوقت في مشاحنات لا لزوم لها، يكون قادرًا على اتخاذ مسار عمل بنّاء، في حين أنّ حالة المواجهة تضع حَدًّا لكلّ نشاط من هذا القبيل.

ويظهر التاريخ أنّ أيّ نجاح على مستوى الفرد أو المجتمع قد أُنجز باعتماد أسلوب التصالحيّة، فمسار التصادم والمواجهة لم يؤدِّ إلى أيّ نجاح حقيقيّ في هذا العالم. وبذا، فإنّ المصالحة أمر حيويّ؛ لأنها تعطي الإنسان الفرصة للإفادة من الفرص المتوافرة إلى أقصى حدّ، في حين تؤدّي المواجهة إلى توجيه طاقاته كلها للتخطيط لتدمير الآخرين. ومن ثَمّ فإنّ أعمال البناء لا مكان لها هنا، مع أنّ سرّ النجاح الحقيقيّ يكمن في البناء والوحدة بدلًا من تدمير الأعداء المفترَضين.

يبرّر كثير من الناس العنف بقولهم: إنهم كانوا ضحية للدسائس والمؤامرات، وكان لابد لهم من وضع حدّ لذلك بالقتال. وهذا العذر لا يستند

إلى أيّ أساس من الصّحة؛ فما يُنظر إليه بأنه مؤامرة هو في الواقع العمليّ مظهر من مظاهر خطة تجذرت في العالم الحالي على أنها قانون طبيعيّ.

في العالم الحالي، لا تكمن المشكلة الحقيقيّة لأي مجتمع في أنّ له أعداء يتآمرون ضدّه، بل في أنّ ذلك المجتمع فشل في تطهير نفسه من الضعف الذي يعطي الآخرين بفرصة لاستغلاله. إنّ حالة السّلام المستقرّة تكون ضمانًا ضدّ هذا النوع من الاستغلال؛ فالعنف يعني أن نجعل أنفسنا غير آمنين عن طريق كسر خطّ الدفاع.



الفصل الثالث: طرائق السّلام ووسائله

مثلما أنّ العنفَ وسيلةٌ في الحياة، فإنّ السّلام ثقافة كاملة في حدّ ذاتها. وتمامًا مثلما أنّ هناك طرائق للعنف، فإنّ للسلام مبادئ وطرائق واضحة. وهنا، نذكر بعض الأساليب التي لها علاقة بسلوك الأنشطة السلميّة، وسوف يظهر هذا كيف يمكن إحلال ثقافة السّلام، وكيف يمكن للمرء بالطبع تخطيط مسار حياته في الأمور كافة؛ حتى يتسنّى للبشر جميعهم العثور على فرص لتحقيق طموحاتهم.

التسامح هو السّلام

إنّ نتيجة عدم التسامح هي العنف، ونتيجة التسامح هي السّلام. وهذا يلخّص جوهر كلّ من السّلام والعنف. إنّ جوًّا من السّلام سوف يسود في أيّ مجتمع من المجتمعات التي تتميّز بالتسامح، في حين يسود جوّ من العنف في أيّ مجتمع يعاني فيه غالبيّة الناس نقصًا في ذاك التسامح. وَوَفقًا لنظام الطبيعة، فإنّ العنف ليس مفيدًا، لا لمرتكبيه ولا لأولئك الذين يتعرّضون له.

إنّ التسامح مزية إنسانيّة أخلاقيّة عالية الجودة، في حين أنّ التعصّب هو انحطاط إلى مستوى الحيوان. وعليه، فإنّ فعل التسامح ليس مسألة إكراه: إنه ينتج على نحو طبيعي من الفاعل، وهو في حالة سموٍّ أخلاقيّ معنويّ. إنّ أيّ هدف نسعى إلى تحقيقه من خلال القوّة الغاشمة، يمكن تحقيقه دائمًا على نحو أفضل عن طريق التسامح؛ فعندما يصبح الفرد غير متسامح في

حالات غير سارّة، فإنه يضعف نفسه إلى حدّ كبير، ويصبح من ثَمّ غيرَ قادر على التعامل معَ المشكلات على نحو فاعل. ولكن، عندما يحافظ على موقف التسامح فإنه يحفظ طاقاته كلها، ويكون قادرًا على التعامل بفاعليّة أكبرَ معَ المسائل المطروحة أمامه.

إنّ عدم الانحطاط إلى سلوك اللاتسامـح، على الرغم من الأوضاع غير السارّة، هو دليل واضح على ضبط النفـس. وكلّ من لديه هذه القدرة فإنها تعزّزه على نحو لا يمكن فيه لأحد أن يتغلب عليه.

التجنّب لا المواجهة

من الممكن جدًّا تجنّب العنف، وحتى مع وجود سبب لتبريره بوصفه خيارًا، وهذا ممكن من خلال الإستراتيجيّة السلميّة لتجنّب الصراع.

إنّ مثل هذا التجنّب يعدّ أنجع وسيلة للتخلّص من العنف، وأهمّ مبدأ لحياة اجتماعيّة سلمية. ومما لا شك فيه أنّ السير في طريق التجنّب يبقي الشخص في الجانب السلميّ، وعلى العكس تمامًا، فإنّ طريق المواجهة يدفع المرء إلى اتخاذ عمل العنف ضدّ الخصوم.

لا يوجد أيّ فرد أو مجتمع في العالـم الحاضر يعيش وحيدًا. وهناك كثير من الذين يسعون إلى تحقيـق أهدافهم، ويمتلكون جـداول أعمال منفصلة مخصوصة بهم، لهذا السبب، فإنهم غالبًا مـا يجدون أنفسهم في مواجهة معَ الآخرين.

في مثل هذه الحالة، هناك طريقان للإنسان: التجنّب أو المواجهة، ولا خيار ثالث. الآن، إذا اختار الإنسان المواجهة فـإنّ النتيجة ستكون صدامًا. ومن

الواضح من تاريخ الإنسانيّة كاملًا أنّ المواجهة تصعّد مشاعرَ العداء في قلوب الناس. وبذا، فإنها لا تفيد أيًّا من الجانبين بأيّ صورة من الصور. ولذلك، ينبغي إعطاء أفضلية السياسة التجنّب على سياسة المواجهة، فطريق تفادي المواجهة توفّر عليك مزيدًا من الخسائر، فإنهـا أيضًا تسمح لك بمواصلة السير على طريق التقدّم من غير أيّ عائق.

وفي الواقع، فإنّ أيّ فعل تجنّب قد يبدو أنه يفيد الطرف الآخر، لكنّ هدفه الفعليّ هو إنقاذ الشخص من المواجهة العبثية. وهذا يتيح لرحلة حياة الإنسان أن تستمرّ من دون عراقيل.

النهج المعتمد

إنّ الذين يعتمدون أسلوب العنف هم أولئك الذين لا يتحلّون بالصبر، أو الذين لا يؤمنون بالمثابرة. أما الذين يختارون الحلّ السلميّ فيجدون أنّ قوانين الطبيعة جميعَها تكون في مصلحتهم. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الذين يختارون العنف لا يمكن أن يحظوا بمثل هذا التأييد من قوانين الطبيعة. ومن ثَمّ، لا يمكنهم التطلّع إلى أيّ شيء في العالم الواقعي سوى الفشل والخراب.

ما معنى (أن تخطو في طريق السّلام)؟ هذا يعني، أنّه حتى في مواجهة الأحداث غير السارّة، لا ينبغي للفرد أن يفقد صبره. وبهذه الطريقة، فإنّ خطّ تفكيره الإيجابيّ لن يصاب بالإحباط، وسيميّز، بوضوح بعدئذ بين الممكن والمستحيل. وبهذا فقط، سيكون قادرًا على تحديد الممكن هدفًا له؛ إذ يجب عليه هنا ألّا يتوقّع نتائج فوريّة.

فبدلًا مـن الشروع فـورًا، فـي تحقيق مهمّتـه، عليـه أن يختـار الطريقة التدريجيّة. ولا ينبغـي أن يصاب بالاكتئاب بسبب خسائـره المتوقّعة، ولكن ينبغي أن يشارك فـي أنشطة هادفة، وعيناه تتطلعـان قُدُمًا نحو المستقبل. وينبغي أيضًا أن يكـون قانعًا بكلّ ما يحصـل عليه في الحاضـر، وأن يكون صبورًا بانتظار بركات المستقبل وخيراته. عليه إبقاء رغباته خاضعة لقوانين الطبيعة، بدلًا من محاولة جعل القوانين تخضع لرغباته. إنّ الصبر في حقيقة الأمر موقف إيجابيّ تمامًا، إنّه ليس سلبيًّا ولا حياديًّا.

تحويل العدو إلى صديق

إنّ سبيل العنف يزيد من عداوة الخصوم. وعلى العكس من ذلك، فإنّ سبيل السّلام يضع حدًّا لمثل هذه العداوة؛ إنّه يحوّل العداوة إلى صداقة.

وفي هذا السياق، فإنّ دراسة الطبيعة البشريّة تبيّن لنا أنّه قد يكون هناك صديق محتمل في داخـل كلّ عدو. وعلينـا أن نكتشف هـذا الصديق، ونقبله حقيقـة أنّ الشخص الذي كان فـي وقت ما عدونـا اللدود أصبـح صديقنا الحميم.

الحقيقة هي أنّ العداوة ليست أمرًا طبيعيًّا؛ إنّها ردّة فعل مصطنعة؛ وعندما يصبح أيّ شخص لأي سبب مـن الأسباب عدو، ينبغي عليـك أن تظل دَمِثًا في تعاملك معَه، وأن تتصرّف جيّدًا، حتـى لو كان ذلك من جانب واحد في مواجهة الاستفـزاز. إنّ ردّ فعلك السلميّ هذا سيؤدّي إلـى إخماد المشاعر السلبيّة في عدوك، إضافة إلى أنّ سلوكك الجيّد سيؤدّي إلى إيقاظ إنسانيّته من سباتها، ويحوّله إلى كائن بشريّ جديد أفضل من ذي قبل.

وفي الواقـع أنّ المزاج نفسه يكـون مشتركًا بين الأطفـال حديثي الولادة جميعهم، وهذا ما يجعل كل إنسان منا طبيعيًّا في البداية، ثم يتحول لاحقًا إما إلى عدو أو إلى صديق وهذا يعني أنّ الطبيعة التي تمتلكها يمتلكها عدوّك أيضًا. ولذلك، يجـب على المرء أن يبحث في العدوّ عـن الإنسان المشترك بينهما، ويجب على كلّ فرد أن يتوقع من الآخرين ما يتوقع لنفسه. إنّ قانون الطبيعة يضمن بأنّ توقعاته لن تذهب سدىً.

نظام السبب والنتيجة

بعبارة أخرى، إنّ العنف هو إلقاء اللوم عن أخطاء شخص ما على الآخرين. لكنّ هذا العالم يستند إلى مبدأ السبب والنتيجة، وعندما يعاني أيّ شخص بعضَ الألم، يجب عليه أن يبحث عن السبب في نفسه، وليس بمحاولة العثور عليه في مكان آخر؛ فكما تزرع تحصد.

وعندما يتجذّر واقـع الحياة هذا في ذهـن إنسان ما، فإنّه لـن يحمّل أيّ شخص آخرَ مسؤوليّة آلامه، وممارسة العنف ضدّهم، بل سوف يحلّل أفعاله بموضوعيّة ليكتشف بنفسه أوجُهَ القصور ويصحّح أخطاءه؛ كي لا يكون ضحيّة معاناة غير ضروريّة.

إنّ الشخص الذي ينخرط فـي أعمال تخريبيّة ضـدّ الآخرين مستخدمًا مشكلاته ذريعـة لذلك، يشبـه المريض الـذي يحمّل جـاره المسؤولية عن مرضه، فيتقاتل معه. أمّا فـي المدينة التي تنحصر حركـة السير فيها في الجهة اليمنى، فإنّ من المؤكد أن أيّ شخص يعتقد أن باستطاعته مخالفة هذه القاعدة بالقيـادة على الجهة اليسـرى سوف يتسبب فـي وقوع حادث سير.

من الواضح أنّ هذا الحادث يكون قد وقع بسبب اصطدام سيّارة أخرى بسيارته، ولكن، لن يكون له أيّ مبرّر للقول إنّ سائق سيّارة آخر بجروح لأنه صدم بالسيارة الأخرى سيّارته، بل يتعيّن عليه أن يعترف بأنّ سيّارته هي من اصطدمت بالآخر؛ لأنّه كان يقود على الجانب الخطأ من الشارع، في حين أنّ السائق الآخر كان يقود السيّارة على الجانب الأيمن الصحيح من الشارع.

وينطبق الشيء نفسه على الجوانب الأخرى جميعها للوجود البشريّ؛ فكلما كان عليك أن تواجه أيّ خسارة في الحياة، فيجب أن تعلم أنّ تلك الخسارة كانت بسبب قصور منك إنّ طريقة التفكير هذه تُعَدُّ سلميّة، وهي طريقة التفكير الصحيحة في شؤون الحياة. فإذا كنت تتّبع في تفكيرك هذه الطريقة الصحيحة، فستكون قادرًا على ضبط نفسك، وتصحيح أخطائك، وهذا سيؤدّي إلى إنقاذ مستقبلك. أمّا إذا كنت تأخذ المسار المعاكس تمامًا، فسوف تلقي اللوم على الآخرين بسبب مشاعرك السيئة وقت الشدّة، ومن ثَمّ تتّخذ خيار العنف، وتتّبع نهج اللاسلم. وفي المُحصلة، فإنّ النتيجة ستكون تدمير مستقبلك، بعد أنْ كنت قد دمّرت فعلًا حاضرك وماضيك.

دَعْ قانون الطبيعة يأخذ مجراه

وفقًا لقانون الطبيعة في هذا العالم، فإنّ الحقيقة تدوم، في حين يكون مصير الباطل إلى زوال. وفي ضوء هذا الوضع، يكفي أنْ نتّبع سياسة الصمت لتدمير الباطل. فالجهر والحركات الاحتجاجيّة لإثارة التحريض ضدّ الباطل يمنحه حياة في الواقع، في حين أنّنا بتبنّي سياسة التجنّب نمنحه موتًا طبيعيًّا.

إنّ السكوت عن الباطل يعني تجاهله، وعدم إعطاء أيّ ردّ فعل عنيف تجاهه، أو إطلاق أيّ احتجاجات ضدّه. ومعَ ذلك، فإنّ الذين يختارون مثل هذه السياسة هم الذين يدركون قوّة الطبيعة، الذين يضعون ثقتهم فيها. أمّا أولئك الذين لا يدركون هذا فإنهم يمنحون الحياة للباطل من خلال الاحتجاج والتظاهر ضده.

ينغمس الناس في الاغلب في ممارسة العنف تحت ادّعاء اجتثاث الباطل، وهذه ليست سوى حماقة؛ فليس للكذب جذور ثابتة، فهو إلى زوال. وفي مثل هذه الحالة، ليست هناك حاجة إلى العنف غير الضروريّ لمحو ذلك، ولهذا فإن اعتماد المسار السلميّ لمواجهة الباطل يعدّ خيارًا مناسبًا مثل اقتلاعه.

سياسةٌ عفا عليها الزمن

إنّ العصر الحاضر هو عصر العولمة؛ فالعالم بأسره قرية عالميّة. وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة النظر هذه، نرى أنّ العنف أو النضال المسلّح قد اكتسب طابع المفارقة التاريخيّة، فلو سألت المشاركين في المواجهة المسلّحة عن سبب اعتمادهم هذا النهج، فإنّهم سيقولون: إنّهم فعلوا ذلك من أجل إسقاط الحكومة الحاليّة، وإنّهم يهدفون إلى بناء نظام جديد، وتحقيق هدفهم للاستيلاء على السلطة. ولكنّ كلّ هذا التفكير هو نتيجة عدم إدراكهم تمامًا لروح هذا العصر.

لقد شهد هذا العصر تحوّلاتٍ عظيمةً ما جعل الاستيلاء على السلطة السياسيّة غير ضروري، وحتى من غير امتلاك السلطة السياسيّة، فإنّ الذين يهدفون إلى تغيير الأنظمة الاجتماعيّة يستطيعون إنجاز أيّ شيء يريدونه من خلال المؤسسات غير السياسيّة.

إن امتلاك وسائل الاتصالات والتصنيع الحديثة جعلت مسألة استلام الحكم تتراجع إلى موضع ثانوي، مع التركيز على «الإدارة والتسيير» أكثر من التركيز على الحكم الملكي أو حكم اللا ملكية، وهكذا، أصبح بالإمكان تحقيق أي إصلاح أو بناء للدول من دون الطموح إلى الرفقة السياسية.

وفي الواقع أنّ السلطة السياسيّة قد تراجعت لدرجةٍ لا تتعدّى أن تكون أكثر صداعًا لمن يمارسونها. لذلك، يجب عليك ترك هذا الصداع للآخرين، وأن تحاول تحقيق أهدافك سلميًّا. عندئذٍ، سوف ترى أنّك قد انتصرت في الحرب من غير الدخول في معركة، ومن غير امتلاك السلطة السياسيّة، وتمكّنت أيضًا من الحصول على الفوائد المحتملة جميعها، وربما أكثر ممّن كانوا سابقًا مرتبطين بالسلطة السياسيّة.

العنفُ نتيجةٌ للكراهية

إنّ أحد الأسباب الرئيسة للعنف هو الكراهية، والكراهية في الأساس هي نتيجة للتفكير السلبيّ. إنّ التفكير الإيجابيّ والكراهية لا يتفقان، وبناءً على هذا، وللمحافظة على مجتمع مسالم، فمن الضروريّ ألا نتوقف عن تشجيع التفكير الإيجابيّ أبدًا. وهنا ينبغي شرح الأحداث بطريقة لا يلجأ الناس فيها إلى التفكير السلبيّ، بل على العكس من ذلك، أن يشعروا بالحافز للتفكير بطريقة إيجابيّة.

سياسات العنف الدينيّ

إنّ السياسة العاطفيّة هي أحد أسباب الكراهية والعنف، ولاسيّما عندما تقوم على شعار: «الدين في خطر!»، وعند تقديم صورة خطأ أو مُبالغ فيها، فإنّ بعض الكُتاب والمتحدثين يحاولون أن يعطوا انطباعًا بأنّ دينهم مهدّد من الآخرين، وقد شُنّت الآن حملة عاطفيّة وبحماسة كبيرة تحت اسم المحافظة على الدين. وبعيدًا عن إنقاذ الدين من الخطر، فإنّ هذه السياسة تهدد المجتمع كلّه من خلال تدمير السّلام.

إنّ هذا المفهوم الذي ينصّ على أنّ الدين في خطر يعني بوضوح أنّ مجتمعًا آخرَ سيُلام على هذا الخطر، وهذا يشجّع كراهية بين مجموعة لأخرى. وعندما تفشل سياسة المواجهة في وضع حدّ للخطر المفترض، فإنّ الإحباط يسود، وهذا بدوره يؤدي إلى أن يكون العنف إستراتيجيّة مبتغاة. وأخيرًا، عندما لا يعطي العنف النتيجة المرجوّة، يكون الانتحار الخيار المرجّح.

إنّ الشّباب المشحونين بالعاطفة، يلجؤون إلى التنفيس عن الكراهية المتزايدة للعدوّ المفترض من خلال تنفيذ تفجيرات انتحاريّة، ومن ثَمّ فإنّ سياسة في خطر الدين تتحوّل في مراحلها النهائيّة تتحوّل إلى سياسة انتحار (دينيّ). وعليه، فإنّ عمليّة إطلاق تحرّكاتهم تحت غطاء إحياء الدين يبرهن على أنّ هذا هو المسمار الأخير في نعشهم، فضلًا على غيرهم. والحقيقة هي أنّ الطريقة الوحيدة ليخلّص الإنسان نفسه من هذه السياسة التدميريّة هي بوقف العنف المرفوض في الظروف جميعها. وما من عذر يمكن أن يكون مُسَوِّغًا لاستخدام العنف مهما كبر أو صغر.

إنّ عالم اليوم هو عالم الاختلافات، فكلّ رجل إنسان مختلف، وكلّ امرأة إنسانة مختلفة. ولهذا، نجـد أنواع الاختلافات جميعها بيـن الناس. ولكن، عندما تأخذ هذه الاختلافات منحًى عاطفيًـا، فإنّها تقود الناس إلى سلوك الحقد ما يجعل العنف يعصف بالمجتمع كله.

ليس هناك سوى حلّ واحد ممكن لهذه المشكلة، وهو غرس فكرة أنّ على أفراد المجتمع جميعِهم العمل ضمن إطار سلميّ، بغضّ النظر عن الظروف المحيطة بهم.

وعليهم، وتحت أيّ ظرف من الظروف، ألّا يصبحوا خارج مضمار السّلام؛ فالعقليّة الصحيحة لا يمكن تكوينها إلا إذا أدرك الناس حقيقة أنّه في هذا العالم لا يمكن تنفيذ أيّ مهمة إلا من خلال السّلام، ولا يمكن إنجاز أيّ مَهَمَّة بنجاح من خلال العنف؛ لأنّ العنف لا يسهم إلا في التدمير وليس البناء، فلا يوجد دين في خطر أبدًا، فالدين الذي يبدو أنّه في خطر ليس بدين بتاتًا.

من الانتقام إلى العنف

كثيرًا ما يحدث أنّه إذا تـأذّى شخص على يد آخـر، أو مجموعة على يد أخرى؛ فإنّ الانتقام يصبح هو الهدف المباشـر، لكن الذين يصممون على الانتقام يميلون إلى نسيان تحذير التاريخ - التحذير المكتوب على كلّ جدار بلغة صامتة: فكّر قبل السعي إلى الانتقام؛ لأنّ الانتقام يقابله انتقام. وبهذه الطريقة، تبدأ سلسلة من أعمال العنف بالتشكل والتراكم ولا تنتهي إلا بعد استنفاد كلا الجانبين لطاقاتهما ومواردهمـا، أي الحد الذي يجعلهما غير قادرين على التحكم بهذا الانتقام.

عندما يكون لأيّ فرد أو جماعة أيّ سبب للشكـوى، فإنّ الحلّ لا يكمن في الأعمال الانتقاميّة، بل في الاستمرار في التحرّك إلى الأمّام، عن طريق تبنّي سياسة تقوم على تجنّب الصراع. إنّ مثل هذا التجنّب يضع حدًّا لهذه المشكلة من بدايتها، في حين يؤدّي رفض تجاهل المشكلة إلـى ردّ فعل متسلسل ولا نهاية له من الانتقام والكراهية والعنف. ومن ثَمّ، فإنّ سياسة تجنّب الصراع هي طريق محبّي السّلام، في حين أنّ الانتقام هو طريق العنف.

إنّ الانتقام موجّه نحو الآخر دائمًا، ولكـن المتضرر الأكبر فعليًّا هو الذي يختار نهج العنف بداية، والثمن الباهظ الـذي يدفعه لسياسة الانتقام هذه هو أنّ عقله يصبح مَخزنًا للتفكير السلبيّ، وهنا، وبدلًا من استهلاك موارده في بناء حياته، فإنّه يبدأ بتبديدها على تدمير الآخرين.

فلو قلنا: إنّ أحد الخصوم جعله لصرف ما يصل إلى خمسين بالمئة من طاقاته وموارده وما إلى ذلك، فإنّه شخصيًّا، ونتيجـة لسياسته الانتقاميّة، سيبذّر الخمسين بالمئة الأخرى.

وإذا ما نظرنا إليه من منظور نهايته المنطقية، فإنّ الانتقام يعني ببساطة أن أي شخص بعد تعرضه لمحاولة لقتل فإنــه قد يلجأ إلى أسلوب قد يؤدي في النهاية إلى موته، والحقيقة هي أنّ الانتقام شرّ بحد ذاته بغضّ النظر عن الظروف، أمّا الامتناع عن الانتقام عن طريق تجاهله فهو فضيلة في الظروف كافة. وإذا كان من يطالب بالانتقام عدوّك، فإنك وبِردّ الانتقام بمثله تصبح عدوّ نفسك، والذين يتحوّلون إلى أعداء أنفسهم لا يمكن إنقاذهم من الدمار من قِبَل أيٍّ كان.

صيغة للسلام الاجتماعيّ

السّلام فطرة بشرية ولا يختل السّلام فـي أيّ مجتمع إلا عندما يؤدي أيّ عمل عنيف إلى حرف الإنسان عن طبيعته. والحقيقة هي أنّ «الأنا» موجودة داخل كلّ واحد منّا، وهي حالة عقلية، التي لا تلبث إذا ما استُفزَّت أن تشتعل وتنشر الخراب والدمار. ولكن بحكم طبيعتها، وَوَفقًا لنظام الخلق، فإن هذه «الأنا» عمومًا تظل في حالة سكون. وعلى هـذا، فإنّ أسهل طريقة للحصول على مجتمع سلميّ هو بعدم إزعاج هذه الأنـا. إنّ السّلام الاجتماعيّ يعكّره أولئك الذين استُفِزّت «الأنا» فيهم، فإذا امتنعنا عن مثل هذا الاستفزاز، فلن يكون هناك إزعاج للسلام الاجتماعيّ.

إنّ هـذا يـدلّ علـى أنّ إرسـاء السّـلام الاجتماعـيّ وحمايتـه أمـر في حدود سيطرتنا، وليس تحـت رحمة العناصر المعاديـة للمجتمع. وهذا يدلّ بدوره على أنّك إذا لم تستفزّ (أنا) الآخرين، فسوف تكون بالتأكيد في مأمن من عنفهم.

إنّ حيـازة الأسلحـة لا يحقق ضمانـة للأمـن الاجتماعيّ؛ فمبـدأ الأمن الاجتماعيّ هو في أنْ تصبح جارًا من أجل الآخرين محبًّا للسلام. إنّك بعدم ارتكاب أيّ عنـف ضدّهم، ستصبـح بالتأكيد، في مأمن مـن الشرّ والعنف منهم، وبكرهك للآخرين فإنّـك سوف تتلقى الكراهية منهـم في المقابل، أمّا إذا كانت لديك مشاعر الحـبّ والنّيّات الحسنـة تجاههم، فإنك سوف تتلقى المشاعر نفسها منهم، وبذا فإنك في هذا العالم ستتلقّى السّلام مقابل السّلام، والعنف مقابل العنف.

الإرهاب - سلوك همجيّ

إنّ شرّ الإرهاب قد أصبح فتنةَ الوقت الحاضر، وهو مُدان على نطاق واسع، ولكنّ ماهيّة الإرهاب لم تُعرّف حتى الآن بوضوح. لقد تَوصّلتُ بعد قدر كبير من التفكير في هـذا الموضوع إلى الاستنتاج بأنّ الإرهـاب يُعرّف بأنّه عمل مسلّح تقوم به منظمات غير حكوميّة. وبالتأكيد، فإنّ للعامّة الحقّ في التعبير عن وجهة نظرهم على نحو سلميّ، ولكنّهم لا يملكون الحقّ قطعيًّا بالمشاركة في عمليات متلاحقـة عن طريـق الحـركات المسلّحة، لأن هـذه الحريات تتناقض مـع كلّ القيم المرعية محليًّـا وعالميًّا. إنّ ما يعـرف بالإرهاب في الوقت الحاضر ما هو إلا نتيجة للعمل المسلّح من قِبل منظّمات غير حكوميّة.

إضافة إلى ذلـك، لا يمكن شـنّ الحرب إلا عـن طريق حكومـة شرعيّة، وحتى الحكومات الشرعيّة، فإنّ هناك عددًا من الشروط الضروريّة لإطلاق الحملات المسلّحة. مثلًا، يمكن لهـذه الحكومات أن تخوض معركة دفاعيّة فقط، ولا يمكنهـا أن تبدأ العدوان. وبالمثل، فإنّ الحـرب الشرعيّة لا يمكن خوضها إلا بعد إعلان رسميّ للحرب، فلا مجال لحرب غير مُعلنة في مجتمع متحضّر، ثمّ إنّه حتى في معركة دفاعيّة قانونيّة يجب على الحكومة أنْ تصدر الأوامر الصارمة بعدم التعرّض للمدنيين؛ لأن قتل غير المسلّحين أو إصابتهم يُعَدّ عملًا غيرَ قانونيّ حتى في حالة الحرب.

ووفقًا للمبادئ الإنسانيّة المعمـول بها، فإنّ شكلًا واحـدًا فقط من أنواع الحرب يُعَدّ مقبولًا؛ إنها الحرب التي لا يمكن تجنّبها دفاعًا عن النفس، أمّا أيّ نوع آخرَ من الحروب، من مثل: الحرب العدوانيّة، والحرب بالوكالة، وحرب

العصابات، والحرب غير المعلنــة، فتُعَدُّ حروبًا غير قانونيّــة وَفقًا للمبادئ الدوليّة، ولا يمكن وصف هذه الحروب بأنها شرعية تحت أي ذريعة كانت.

وَوَفقًا للتعريف أعلاه، فإنّ أيّ حركة تبنى على الإرهاب تُعَدّ بالتأكيد غير قانونيّة. ولا يمكن تبريرها ببساطة بإعطائها أسمــاء رنّانة. وعليه، فإنّ أيّ محاولة لتحقيق أهداف الإنسان عن طريــق الانخراط في الإرهاب بدلًا من استخدام الوسائل القانونيّة اللازمة لذلك، هو انتهاك للحدود كلّها.

ولذلك، لابدّ مــن إنهاء الإرهاب فــي العصر الحديث، لكــن هذا لا يمكن أن يتمّ من خــلال الهجمات المضادة، ويعــود ذلك إلى سببيــن: أمّا أوّلهما فلأن ذلك سيكون أشبه بمحاولة قمع الإرهاب غير الرسمي من خلال إرهاب الدولة، وأمّا ثانيهما فلأنّ الإرهاب الحديث يستمدّ قوّته من عقيدته أكثر ممّا يستمدّها من البنادق والقنابل. ولهذا السبب، فــإنّ عقيدة مضادّة بدلًا من التفجيرات المضادّة ستكون أكثر فعاليّة لوضع حدّ للإرهاب.

إن العقيدة التي يلتــزم بها الإرهابيون تجعلهم يؤمنــون بأنهم بموتهم في المعركة سيصبحون شهداء، وبهذا سيحصلون على حياة جديدة في الجنة أفضل بكثير من الحياة الدنيا.

إنّ هذا الاعتقاد هو الذي جعل من التفجيراتِ الانتحاريّة مسوّغًا مقبولًا في نظرهم فبناء على ذلك، فإن أعمال العنف التي يقومون بها لن تتوقف إلا بعد أن يثبت لهم من خلال عقيدة مضادة أن عقيدتهم لا أساس لها من الصحة.

إضافة إلى ذلك، ينبغي معرفــة أنّ الإرهابيين المعاصرين، وأكثرهم من جيل الشباب اليافع، لن يكونوا قادرين على مواصلة أعمالهم من غير الدّعم النقدي الواسع النطاق، والتعاطف الشعبيّ ووضعهم بأنهم أبطال، وهذا كلّه

يتلقّونه من غير (المقاتلين السلبيين)، أي من غير المشاركين في أنشطة وأعمال عنيفة.

إنّ المتشددين السلبيين هم، إذا جاز التعبير، خطّ الإرهاب الثاني، ودورهم مهمّ؛ وذلك بتوفير البنية التحتيّة والتموين اللازمين. ولا يمكن شنّ حرب بنجاح إلا إذا استمرّت خطوط الإمداد بتقديم المتطلبات العسكريّة جميعها منقوصة من دون أيّ انقطاع، وإذا حدث أن انقطعت تلك الإمدادات، فإنّ الحرب ستتوقف تلقائيًّا، مثلما قد يموت إنسان عند قطع الأكسجين عنه. ولكنّ، وعلى نحو عقديّ، فإنّ المتشددين السلبيين يزون أن من واجبهم تقديم المساعدة الكاملة للإرهابيين النشيطين. وإذا كان عدد الإرهابيين بالآلاف، فإنّ عدد المؤيدين يصل إلى الملايين، ومادام الأمر كذلك، فإنّ إبادة الإرهابيين الناشطين المعروفين لا تكف لوضع حدّ لظاهرة الإرهاب.

إذن، لابدّ من التصدّي لمسألة الدعم الهائل المقدّم من جميع أنحاء العالم من الإرهابيين السلبيين على الفور، ولابدّ من تغيير عقولهم وتحويل تفكيرهم المتعلق بالعنف إلى تفكير مسالم. حينئذ فقط، سيكون من الممكن تخليص العالم من خطر الإرهاب.



الفصل الرابع: القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن

يُعدُّ الأسلوب السلميّ من وجهة نظر معيّنة اسمًا آخرُ لحالة القبول بالوضع الراهن، فحالة القبول بالوضع الراهن لشخص محبّ للسلام ليست شكلًا من التراخي أو اللافعل، بل هي خطّة عمل إيجابيّة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى؛ أي إنّ فحبّ السّلام يقبل بالوضع الراهن لإبعاد نفسه عن نقطة المواجهة إلى ميادين أخرى؛ حيث يمكن له المضيّ قُدُمًا في العمل البنّاء. وبدلًا من التورّط في المشكلات، فإنّه يتطلع إلى المستقبل يوجه طاقاته من أجل الإفادة من الفرص المتاحة. ولهذا السبب، فإنّ حالة الرضا بالأمر الواقع لشخص محبّ للسلام هي حقًّا قبول إيجابيّ للوضع الراهن.

وفي عالم المصالح المتضاربة، فإنّ حالة القبول الإيجابيّ للوضع الراهن هي القاعدة المثلى لتصوّر مشروعـات بنّاءة وتنفيذهـا. إنّ تبني مثل هذه الحالة قد يتطلب توافـر فضائل خاصّة، مثل البصيـرة وبعد النظر، فضلًا على المقدرة العالية على التخطيط. ومن ثَمّ فهي تؤدّي إلى فائدة مزدوجة: أولًا، عدم الاخلال بالسّلام، وثانيًا، ضمان للنجاح في نهاية المطاف. ويمكن تلخيص هذه الصيغة كما بالآتي: تجنّب المواجهة، واعتماد النشاط السلميّ.

الورود وأشواكها

كما في عالمنا ورود، هناك أشواك أيضًا. ولذلك، فإنّها خبرة عامّة لكلّ من يريد المشاركة في أيّ نشاط إيجابيّ أن يدرك بأنّ هناك عقباتٍ في طريقه،

وربّما بسبب قانون الطبيعة تحديدًا، وهذا ينطبـق على الفرد، وكذلك على الأمّة بأسرها. إنّ إحدى الطرائق لمعالجة مثل هذا الوضع عنده هو البدء في إزالة العقبات الموجودة في طريقه جميعها، ومن ثَمّ يبدأ العمل على إنجاز هدفه. وتعرف هذه الطريقة عمومًا بالتطرّف (الراديكاليّة).

إنّ الراديكاليّـة مغريـة جـدًا للمتطرفين، أو إلـى أولئك الذيـن تقودهم عواطفهم، ولكنّها غير عمليّة من حيث تحقيق أي هدف إيجابي وفي الوقت الذي قد تستخدم فيه الراديكالية على نحو فاعـل لأغراض التدمير، فإنها تصبح عبثية أكثر وغير مجديـة عندما يتعلق الأمر بالبنـاء. وحالما يُختار طريق التطرّف، فإنّ النظام السائد لن ينهـار فحسب، بل، وبسبب الأعمال التدميريّة، ستتهاوى أيضًا التقاليد الاجتماعيّة كلّها التي استمرّ بناؤها قرونًا طويلة. ونتيجـة لسفك الدماء والمواجهة العنيفة، فـإنّ عددًا لا يحصى من الناس سيقعون ضحيّة لمختلف أنواع الآلام والمصائب. ومع أن الخبرة تظهر أنّ أسلوب التطرّف يكون جذّابًا من الجانب النظريّ الفكريّ، إلا أنه من حيث النتائج العملية يخلو من أي مزية إيجابية.

الأسلوب الآخر يكون بتجنّـب المواجهة معَ الوضع الراهـن، ووضع خطّة للأعمـال المحتملة ضمن المجـالات الممكنـة. وبالقبول المؤقـت بالوضع الراهن، فإنّه يمكن اغتنام الفرص الحاليّة، وهذا هو التقبّل الإيجابيّ للوضع الراهن الذي أشرت إليه سابقًا في هذا الفصل.

إنّ طريق التطرّف تنتج العنف دائمًا، وعلـى العكس من ذلك، فإنّ التقبّل الإيجابي للوضع الراهن يحقق هدفه عن طريق المحافظة على السّلام في المجتمع.

ومع أن الأول يؤدّي دائمًا إلى تفاقم المشكلـة، فإنّ الثاني، يسير بطريقة سلسة، عن طريق تجنّب الاحتكاك، من غير التسبّـب في أيّ مشكلات. فلو كانت الطريق الأولى هي طريق الانحراف، فإنّ الثانية هي طريق البناء.

سياسة فك الارتباط

أيضًا، يمكن تعريف القبول بالوضع الراهن على أنّه سياسة فكّ ارتباط، وهذا يستلزم إيجاد السبل للعمل السلميّ على الرّغم من وجود الخلافات، ما يعني أنّه، وبغضّ النظر عن وجود حالة صراع على المصالح، وعلى الرغم من الظروف غير المواتية، فإنّ مثل هذه الإستراتيجيّات يجب تبنّيها، وهذا قد يحول دون شنّ الحرب، ويعمل على إيقاف وقوع أعمال العنف. لذا يجب وضع القضايا الجدليّة جانبًا حتى يمكن اغتنام الفرص المتوافرة في جوّ سلميّ. وباتّباع هذه السياسة، فإنّنـا نحقق مكسبين في وقت واحـد: الأول، إحلال السّلام على الرغم من الأجـواء الكريهة الناجمة عـن الخلافات، والآخر، الإفادة المثلى مـن فرص العمل على الرّغم من وجـود مشكلات. إنّ واحدة من الفوائد الكبيرة لسياسة الفصل -من حيثُ إنّها الصيغة الطبيعيّة الأكثر نجاحًا لإرساء السّلام- هي أنّ الظروف التي تؤدّي إلى إجراءات تعتمد على النتائج لم تَعُدْ مسألة من الماضي، لكنّها أصبحت حقيقة اليوم.

أوجه التفكير الإيجابيّ

إن القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن هو، الإستراتيجيّة الأكثر نجاحًا لبناء حياة سلميّة، ومعَ هذا، فإنّ الشرط الضروريّ للاستثمار هذه الإستراتيجيّة هو أن يكوّن الانسان نوعًا من الاتجاه الإيجابيّ الذي سيمكّنه من الارتقاء فوق

ظروفه. وحتى في أكثر الحالات السلبيّـة، فإنّه ينبغي له أن يكون قادرًا على مواجهة العواصف كلها، كما تفعل الطيور الكبيرة مـعَ العاصفة، وينبغي ألا يكون تفكيره مرتبطًا بشروط مسبقة، بل عليه أن يفكّر في أفعاله، ويخطط لها من دون أيّ تميز أو تحامل.

إنّ إحدى العقبات التي تحول دون القبـول الإيجابيّ بالوضع الراهن، هي الميل إلى إفساح المجال للغضب، والرّغبة في الانتقام؛ لأنّ مثل هذا الموقف يسمّم عقل الإنسان، بحيث لا يعود قادرًا على التفكير بموضوعية. إنّ غياب الموضوعيّة هذا هو السبب الرئيس للفشل في اتخاذ موقف إيجابيّ.

الغضب ضعف

إنّ الغضب قاتل السّلام؛ فهو يؤدّي في كثير من الأحيان إلى العنف، وإطلاق العِنان للغضب هـو علامة ضعف، في حيـن أنّ السيطرة عليـه علامة قوّة. إضافة إلى ذلك، فإنّ الغضب يربك قـدرة الإنسان على التفكير؛ فلا يمكن للرّجل الغاضب فهم أيّ قضية بطريقة واضحة صحيحة، ولا يمكن أن يتجاوب معَ الوضع بطريقة كافية مناسبة. والأسوأ من هذا أنّ الإنسان عندما يكون غاضبًا فإنّه يكون ميّـالًا إلى العنف. والحقيقة هـي أنّ العنف ليس حلًّا لأيّ مشكلة، ومن يستطيع أن يمنع نفسه من الخضوع للغضب، فإنّه سيتمكّن من جعل أيّ موقف يواجهه في مصلحته عن طريـق السعي إلى حلّ سلميّ، وهو السبيل الوحيد والمؤكّد لحلّ أيّ مشكلة كانت.

إنّ للعقل البشريّ قدراتٍ غيرَ عاديّة؛ فعندما لا يكون غاضبًا، فإنّه يستطيع توجيه قدراته للحصول على أفضل النتائج، ولكن عندما يكون غاضبًا، فإنّه يفقد توازنه العقليّ، ولا يكون في وضع يسمح له بالاستخدام الكامل لقدراته

العقليّة لمصلحته. وباختصار، فإنّ الإنسان ينتصر عندما لا يغضب، وينهزم عندما يغضب.ولا يجب أن يغيب عن البال أيضًا أنّ التغلّب على الغضب ليس مجرّد مسألة كبت للعواطف، بل هو القدرة على التعامل معَ المشكلة عن طريق التسامي على سلبيّة الغضب.

على المرء أن يكـون قادرًا على الـرد، غير متأثر بالعواطـف على الرغم من الاستفزاز. وهذا لا ينطبق على الفرد فقـط، وإنّما على الأمة كاملة. إنّ القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن هو بلا شكّ أضمن طريقة لتحقيق النجاح، وأولئك الذين يتبنّون هذه الطريقة فقط هم الذين لديهم القدرة على التفكير المستقلّ بعيدًا عن سيكولوجية الغضب.

ولايمكـن تبنـيّ مبـدأ القبـول الإيجابـيّ بالوضـع الراهـن إلا الذيـن يتمتعـون بانضبـاط عقلـي بعـدم اللجـوء إلـى العنـف، علـى الرغـم من مواجهتهـم مواقـفَ غيـر سـارّة. أمّـا الذيـن لا يستطيعـون كبـح ميولهم العنيفة، فلـن يكونوا قادرين علـى معرفة فوائـد القبول الإيجابـيّ بالوضع الراهن.

أسلوب اللاعنف

إنّ أحد قوانين الطبيعة هـو أنّ اللاعنف قضيّة موجّهـة لتحقيق النتائج، في حين أنّ العنف موجه للإحداث الدمار. لذلك، إذا كان الفرد قد حصر أنشطته في مجال الرفق واللاعنف، فإنّ عمله سوف يسفر عن نتائج جيّدة، في حين أنّ الشخص الذي يختار طريق العنف والتعصّب يتقهقر إلى الوراء بدلًا من التقدّم إلى الأمام.

ومما لا شك فيه هو أنّ أيّ شخص يختار طريق التعصّب والعنف، فإنّ طاقاته سوف تنقسم من غير مبرّر بين جبهتين: البناء الداخليّ ومحاربة عدوّ خارجيّ، في حين أنّ الشخص الذي اختار الدماثة واللاعنف يمكن أنْ يكرّس طاقته المُتاحة وموارده كلها نحو جبهة واحدة فقط، هي التماسك الداخلي. نتيجة طبيعيّة لذلك سيتمكّن من تحقيق أقصى درجات النجاح.

هذا هو قانون الطبيعة العامل في عالمنا. فإذا كان على أحدهم أنْ يحقّق أيّ هدف جليل، فكلّ ما عليه عمله فقط هو الالتزام بالنظام الطبيعي هذا؛ المستند كليًّا إلى مبدأ السّلام وعدم اللجوء إلى العنف. وبهذا ينجح من خلال الالتزام بهذا القانون، ويفشل في حال الانحراف عنه. لذا، فإنّ الأعمال غير العنيفة يمكن مساواتها بحالة القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن.

فوائد السّلام

إنّها لحقيقة أنّ المآثر والأعمال البطوليّة جميعها قد أُنجزت في هذا العالم بمساعٍ سلميّة، ولم تُنجز أيّ مَهَمَّة نبيلة باستخدام قوّة العنف. وهذا ينطبق على الاكتشافات والتقدّم التقني؛ فلا المؤسّسات التعليميّة، ولا معاهد البحوث كانت قد أُنشئت عن طريق وسائل عنيفة، حتى إنّ تحويل الحديد إلى آلات، وتخطيط المدن الرئيسة قد تمّ كلّه بقوّة السّلام، لا العنف. وبدءًا من ضمان الرعاية الاجتماعيّة وإنشاء البنية التحتيّة، فقد أنجزت الإجراءات التقدمية عن طريق إستراتيجيّات سلميّة.

إنّ العنف في حدّ ذاته مدمّر، ولا يمكن تحقيق أيّ إعمار بإنتاج الدمار. وهذا هو قانون الطبيعة الذي لا يتغير.

حلّ مشكلة العداوة

يتمسّك بعض الأفراد بفكرة أنّ مجتمعًا ما أو أمّة ما بعينها عدوّ لهم، ومن ثَمّ، تصبح فكرة العدائيّة هي السبب والمبرر لاتخاذ طريق العنف، وعندئذٍ يتّخذون موقفًا عدوانيًا، علنًا أو سرًّا؛ بحجّة وضع حدّ للعداوة. لكن هذه مبنية على فهم خاطئ خطة عمل مثل أي خطة أخرى تبنى على افتراض أنّ الحرب يمكن أنْ تكون هي الحلّ.

إنّهم يفشلون في إدراك أنّ أفضل حلّ لمشكلة العداء تكمن في القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن، وهذا يُسهّل التعامل السلميّ معَ العدوّ. إنّ هذا ممكن لأنّ حالة القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن هي حالة نفسيّة تُمكّننا من التعامل معَ العدوّ بطريقة هادئة، ما يجعل العداء نفسه يختفي إلى الأبد.

إن من الضروري أن نَعُدّ الأعداء جزءًا هامشًا في حياتنا بدلًا من عدّهم جزءًا لا يتجزأ من وجودنا، وينبغي أنْ نعترف بأنّ العدائيّة لأيّ عدوّ يمكن أنْ تنتهي باتّباع إستراتيجيّة إيجابيّة. ويمكننا تشبيه العدوّ بالغبار الملتصق على الزّجاج. إن مثل هذا الغبار يمكن غسله بسهولة بالماء، المشكلة الحقيقيّة ليست في غياب الماء (أي الإستراتيجيّة الإيجابيّة) لغسل الغبار.

يتطلّب التصفيق وجود يدين اثنتين؛ إذ إنّ يدًا واحدة لا تستطيع التصفيق بمفردها. وبالمثل، فإنّ العداوة مسألة ذات وجهين؛ فإذا أصبح شخص ما عدوّك، فعليك ألا تردّ على هذا العداء بمثله. إنّ المثل بالمثل فيما يتعلّق بالعداء ليس بالحلّ الأكثر نجاحًا للمشكلة. وبذا، فإنّ تبنّي سلوك إيجابيّ تجاه العدوّ يمكن أنْ يسفر عن نتائج مفيدة، منها أنّ عدوّك السابق يمكن أن يكون صديقك يومًا ما.

العنف نتيجة للإحباط

تتمثل إحدى حسنات القبول الإيجابيّ للوضع الراهن في أنّه يجنبنا الآثار الفتّاكة الناجمة عن الإحباط، الذي يأتي من الشعور بالحرمان. وعليه، فإنّ آفاقًا مشرقة تكون واضحة في الحالات جميعها، على الرغم من أنها قد تبدو غير مواتية. وتكمن الفائدة العظمى لحالــة القبول الإيجابيّ للوضع الراهن في أنّها تمدّ البشر بشجاعة فائقة؛ فهي تحميهم في الحالات جميعها من أن يصبحوا فاقدي الأمل بسبب الأبواب المغلقة في وجوههم، فيفشلوا في تحديد نهج للاستمرار في حياتهم.

إنّ العنف ينبع مــن الشعور بالحرمان، في حين ينبــع السّلام من الشعور بالاكتشاف. فأولئك الذين تأصّلــت لديهم فكرة أنّهم حرموا ما هو حقّ لهم يعانون دائمًا حالةً نفسيّة سلبيّة، وهذه السلبيّة غالبًا ما تتّخذ شكلًا من أشكال العنف. ولكنّ أولئك الذين يعيشون معَ شعور إيجابيّ بأنّهم قد خاضوا شعور الاكتشاف، فإنّهم يتمتّعون بالسّلام الذهنيّ، وتبقى حياتهم سلميّة إلى الأبد.

ثبت الأفراد أو الجماعات الذين يشعرون بالكراهية نحو الآخرين، ويلجؤون إلى العنف فــي تعاملهم معَهــم، بسلوكهم هــذا أنّ مظالمهــم مُستمدَّة من إحساسهم بالحرمان. وعلى النقيض من ذلك، الأفراد أو الجماعات الذين ينتهجون حياة سلميّة بسلوكاتهــم أنّهم استطاعوا العثــور على ما يطمحون إليه في الحياة، لكنّ ذهن الشخص المحبط يكون مهووسًا دائمًا بالأوضاع السائدة، في حين أنّ الشخص المتحرر من نفسية الإحباط يكون قادرًا على التفكير من خلال الارتقاء فــوق الظروف الحالية. ومن ثَــمّ، فإنّ الشخص

المحبط هو شخص متوجّه للحاضر، أما الشخص المتحرر من الإحباط فهو شخص متوجّه نحو المستقبل.

العنف غير ضروري

يتعارض العنف الاجتماعيّ مع طبيعة الإنسان الحقيقيّة. فالعنف، الأعظم بين الجرائم كلّها، قاتل للإنسانيّة، ومع ذلك يبرز هذا السؤال: لماذا ينجرف الناس نحو العنف؟ السبب هو أنّهم يضعون في الحسبان الظروف الحاليّة فقط، يستطيعون رؤية الآفاق المستقبليّة. ثمّ إنّ مثل هؤلاء الناس يجدون ما يسمّى بالمسوِّغات لممارستهم العنف، ويبدو لهم أنّ التسويغ يستند إلى حجّة منطقيّة، ولكن حججهم، في الواقع الفعليّ، ليست إلا مغالطات واهية. وفي استخفافهم بالآراء العقلانيّة كلها فإنّهم يلتزمون بفكرة أنّ - في حالة مخصوصة بهم، وللسبب كذا وكذا- انخراطهم في العنف أصبح مُسوِّغًا أخلاقيًّا.

ولكنّ الحقيقة هي أنّ ما يُسمّى تسويغًا للعنف هو شيء غير مقبول. فعندما يشارك فرد أو مجموعة في أعمال عنف، يكون لديهم في آن واحد وفي الوقت نفسه خيار الطريقة السلميّة غير العنيفة. وإذا كان الأمر كذلك، فَلِمَ اللجوء إلى العنف أصلًا؟ فعندما تتوافر فرصة تحقيق الهدف من غير اللجوء إلى العنف، فلماذا يتبنّى الجميع الأساليب العنيفة؟ الحقيقة هي أنّه يجب التخلّص من العنف من حيثُ المبدأ عن طريق تجاهله، ويجب اعتماد السّلام دائمًا. ولذلك، لا ينبغي انخراط الفرد في العنف تحت أيّ ذريعة كانت، ولابدّ له من الالتزام بالنهج السلميّ في المواقف كلّها.

الصبّر سرّ النجاح

يتمثل أحد عناصـر القبول الإيجابيّ بالوضع الراهـن في سياسة (انتظر وشاهد). وهذا يعنـي أنّ كلّ ما يستطيـع الإنسان فعلـه وبسهولة في الوقت الحاضر، لابدّ من إنجازه، في حين يؤجّـل عمل كلّ ما يشعر بأنّه يحمل معه مشكلاتِ كثيرة إلى وقت آخرَ تكون فيه الظروف أفضل.

غالبًا ما يحدث أن الإنسان حين تواجهـه المشكلات والتحدّيات الصعبة والتجـارب المريرة، وفـي محاولة للخروج مـن السخط الهائـل، فإنّه يلجأ إلى العنف، لكنّ هذا النوع من ردّ الفعل هو نتيجـة الانحراف عن الطبيعة. فالحقيقة هي أنّ قانون الطبيعـة يفضّل دائمًا أولئك الذيـن يتبنّون المسار الواقعيّ. فإذا كان مثل هؤلاء الأفـراد أو الجماعات الذين يقفون إلى جانب الحقيقة والعدالة لا يتصرّفون بسلوك متهوّر، ويلازمون الصبر، فإنّ الظروف المواتية ستأتي في نهاية المطاف لتخبرهم بأنّ النجاح سوف يأتيهم طوعًا.

وفي معظم الحالات، فإنّ الفشل ينتظر أولئك الذين لا يطيقون صبرًا؛ لأنّهم يتصرّفون بعاطفيّة من غير التفكير في التداعيات المحتملة. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الذين يختارون طريق الصبر يكون مصيرُهم النجاح.

وعندما يسلك الفرد طريق الصبر، فإنّه يتّبـع مسار الطبيعة، أمّا عندما يعتمد مسار قلّة الصبر، فإنّه ينحرف عن مسار الطبيعة. ومن ينحرف عن مسار الطبيعة فلا توجد لديه احتمالات للنجاح في عالم الله تعالى هذا.

سياسة موجّهة نحو المستقبل

بعبارة أخرى، يمكن التفكير في القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن على أنه شكل من أشكال البصيرة. فهو بوصفه طريقة يسير وَفقًا للقانون الطبيعيّ (انتظر وشاهد). هناك أوقات يجد كلّ فرد ومجتمع نفسه في نوع من المواقف التي يشعر فيه أنّه أمام بعض العقبات التي تمنعه من إحراز أيّ تقدّم. وفي مثل هذه الحالات، فإنّ معظم الناس يعدّون مثل هذه الظروف الصعبة ظروفًا دائمة، فيبدؤون الصراع معَها من أجل إزالتها. إنّ صراعًا من هذا النوع يثبت دائمًا أنّه بلا جدوى، إنّه فقط يجعل الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ. لذا، ينبغي أن نتذكّر أنّ الظروف الصعبة غير دائمة هنا، فهي ذات طبيعة زائلة. وبناء على ذلك، فإنّ الحلّ السهل لهذه المشكلة يكمن في تجاهل ذلك، بدلًا من شنّ الحرب على الظروف. إنّ هذه السياسة ستحافظ على السّلام الذهنيّ للإنسان، وأيًّا كان ما لا يستطيع الحصول عليه الآن، فسوف يأتي الوقت الذي سيصبح متاحًا له. من الملاحظ أن الإنسان عندما يواجه مشكلة ما، فإنّه يريد حلّها من غير أيّ تأخير. ومن هنا يبتدئ المسار غير الصحيح؛ فلو استطاع وضع مشكلاته جانبًا ولو مدّة قصيرة، فإنّه سيجد أنّ الحلول تقدّم نفسها من غير الحاجة إلى قتال الظروف، أو المواجهة معَ الخصوم، فمشكلاته لن تستمرّ إلى أجل غير مسمّى. وفي معظم الحالات، فإنّ العنف يحدث فقط بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ في الحياة اليوميّة.

تجنُّب الخلاف

بلا ريب، يُعَدُّ القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن ضمانًا للنجاح. لكنّ الالتزام به لا يكون ممكنًا إلا لمن يملك القدرة على الامتناع عن سياسة المواجهة، على الرغم من الاستفزاز، ومن لا يشارك في الانتقام تحت أيّ ذريعة.

إنّ مواصلة الحيـاة عن طريق تجنّـب المواجهة هو سـرّ النجاح؛ فتجنّب الخلاف يغني عدم إعطاء أيّ فرصة للآخرين لإحداث احتكاك؛ بمعنى كلّما ظهرت خلافات بين طرف وآخرَ، فإنّ التسوية بينهما يجب أنْ تقتصر على أجواء التفاوض السلميّ. ولاينبغي أن تتطوّر الخلافات إلى المواجهة الفعليّة بين الطرفين.

في كثير من الأحيان، غالبًا مـا يحدث في هذا العالـم أنْ ينشأ توتّر بين دولتيـن، وهذا التوتّـر في حدّ ذاتـه شيء طبيعـيّ لا مفرّ منـه، مهما كانت الأوضاع. ولكنْ مـا هو جدير حقًّا بالاهتمـام هو أنّه لا ينبغـي السماح بهذا التصعيد إلى أجل غير مسمّى.

ما معنى أن تبقـى الاختلافات ضمن الحـدود؟ إنّ ما يعنيـه ذلك هو أن تقتصر تلك الخلافـات على المجال السلميّ، فعندمـا تصل الخلافات إلى المرحلة الفعليّـة في الصدام والعنـف، تكون الحدود جميعهـا قد انُتهكت. باعتقـادي أن لا عيب فـي إبقاء الاختلافـات ضمن حـدود، والخطأ هو في تخطي حدود اللباقة الطبيعيّة جميعها. إن من الضروري على من يرغب في متابعة هدف جديّ بنجاح، أن يطرح النقـاط المرتبطة بهدفه جميعها على بساط البحث، أما مناقشة أيّ شيء آخرَ غير الهـدف الفعليّ فهو لعنة على كلّ صاحب مَهَمَّة.

ولكن، كيف يمكن تأسيس جوّ من الحوار في أجواء غير تصادميّة بين المتكلِّم والمُخاطَب؟ الجواب هو أنّ هذه الأجواء يمكن إيجادها فقط من جانب واحد عن طريق التحلّي بالصبر من صاحب الهدف الإيجابيّ. ومن الناحية العمليّة، لا توجد وسيلة أخرى ممكنة لذلك. فعلى الإنسان الهادف، بتجنّبه الاحتكاك، المحافظة على جوّ طبيعيّ بينه وبين الخصوم المحتملين، بحيث تمضي رحلته قُدُمًا من غير عوائق، إنّ مثل هذه الحكمة هي التي توفر الأساس السليم لحالة القبول الإيجابيّ بالوضع الراهن.



الفصل الخامس: معارضة سُنَّة الخلق

إنّ الاقتناع بفكرة أنّ العنف مبدأ قابل للتنفيذ لتحقيق الأهداف الشخصية، ومن ثَمّ إطلاق العِنان للنفس بممارسة العنف، هما أمران ضدّ سنّة الخلق، فلا المفهوم ولا الأفعال الناجمة عن ذلك تتفق معَ السّنّة الإلهيّة للخلق، وهذا هو السبب الذي يجعل العنف لا يؤدي إلى أيّ نتائج جيّدة، أو أن يخدم أيّ غاية ما عدا الدمار.

فلو أنّ مزارعًا كانت لديه قطعة أرض خصبة، فإنّه يستطيع زراعة كميّات وافرة من المحاصيل، ولكنّ هذا لن ينجح إلا إذا اتّبع طريقة مناسبة تنسجم معَ الطبيعة. ولكن، إذا ابتدأ، ومن غير تفكير، برشق الحجارة أو إسقاط القنابل على حقله، فإنّه لن يكون قادرًا على جني المحاصيل المطلوبة. فعلى الرغم من كونه صاحب مِساحات خصبة، فلن يكون أفضل حالًا من الشخص الذي لا يملك أيّ شبر مربّع من الأراضي باسمه. وينطبق الشيء نفسه على الحياة البشريّة؛ فهي تزدهر في جوّ السّلام، وتفنى في جوّ العنف.

إنّ العنف نتاج للاختلافات بين الناس. فالذي يؤمن بالأساليب العنيفة يَعُدّ الاختلافات شرًّا أو عقبة في مسار حياته. ولهذا السبب، فإنّه يصمم على اجتثاث هذا الشرّ، لأنّه يعتقد أنّه لا يمكنه تحقيق أهدافه إلا عندما يزيل الخلافات بينه وبين الآخرين. ويُعَدّ هذا سوء فهم كبير؛ لأنّ الاختلافات ليست من صنع الإنسان، فهي من ترتيب الخالق نفسه، وهي جزءٌ أساسيٌّ من الطبيعة، فلا يمكن أن يوضع حدّ لأيّ شيء يكون جزءًا أساسيًا من الطبيعة. وعليه، فإنه لا يمكننا إلا أنْ نقبل الطبيعة على ما هي عليه، والقضاء عليها

هو أبعد من قدراتنا. ولهذا السبب، عندما تُقتل مجموعة بدعوى الاختلافات، فإنّ مجموعة أخرى تأخذ مكانها فورًا، ويستمرّ الأمر إلى ما لانهاية بهذه الطريقة. وهذا هو السبب في أنّ هذه السلسلة من الفعل وردّ الفعل بشأن مسألة الاختلافات لا يمكن وقفها.

إنّ أسلوب العنف يتعارض معَ سنّة الطبيعة، التي تضمن لكلّ فرد كامل الفرص لأداء دوره أو دورها في التقدّم البشريّ عن طريق استغلال القدرات إلى الحدّ الأقصى. ولا يمكن الإفادة من هذه المزية إلا في جوّ سلميّ. إنّ مرتكبي أعمال العنف، عن طريق تصنيف الناس إلى أعداء، يحاولون القضاء على حياة الناس الغالية، حتى قبل أن تُتاح لهم الفرصة للإفادة من قدراتهم، وكذا إفادة الإنسانيّة منها.

وَوَفقًا لقانون الطبيعة، فإنّ أيّ مَهَمَّة كبيرة تتطلّب دائمًا دعم المجتمع بكلّ أطيافه. فمن غير المشاركة الجماعيّة، لا يمكن لأحد أنْ يحقق أيّ انتصارات كبيرة. وهذا يمكن أنْ يتحقق فقط في جوّ سلميّ. ويعدّ التعاون المتبادل في أجواء العنف شيئًا مستحيلًا، ففي مثل هذه الأجواء يميل الناس إلى أنْ يكونوا غير متوازنين نفسيًا. فكيف يمكن للتعاون المتبادل أنْ يصبح ممكنًا في مثل هذه البيئة؟

يكمن أحد شرور العنف في أنّه لا يمكن تحقيق أيّ تنمية مستدامة في جوّ الشرّ الذي يوجده،؛ فأيّ مَهَمَّة كبيرة للتقدّم تصبح موجّهة نحو تحقيق النتائج فقط بعد التخطيط والعمل على المدى البعيد، وهذا لا يمكن إنجازه إلا في بيئة سلميّة، أمّا في أجواء العنف، فإنّ مثل هذه الخطط تتعرّض لنكسات مرارًا وتكرارًا من غير إحراز أيّ تقدّم؛ فبحجة قتل العدوّ، تتلقى عمليّة التقدّم البشريّ ضربة قاضية.

إنّ الأثر الأكثر سوءًا لاستخدام العنف هو أنّك لا تتلقّى شيئًا في المقابل، حتّى إنك قد تهدر المكاسب السابقة. وبذا، فإنّ أيّ انتصار تحققه عن طريق اتّباع وسائل العنف هو في الواقع هزيمة.

ما العنف؟ إنّه الخيار الخطأ الذي يتّخذه من يعاني الشعورَ بالحرمان؛ فأيّ مجموعة، أعلى حقّ كانت أم على باطل، قد تعاني هذا الشعور، وليس هناك سوى طريقة واحدة مفيدة للتخلّص من ذلك، لن يكون هـذا إلّا بالوسائل السلميّة. إنّ الطريقة العنيفة طريقة قاتلة إلى الحـد الذي لا يجعلها خيارًا لأحد بتاتًا. والعنف، من وجهة نظر النتيجة، لا يضيف إلا شعورًا بالحرمان، بدلًا من وضع حدّ لذلك؛ فهـو ليس إلا انفجارًا لشخـص استُفزّ؛ وبذا، فإنّ العنف لا يستطيع تقديم أيّ حل إيجابيّ لأيّ مشكلة.

النصرُ؛ هزيمةٌ أيضًا

شنّ الملك بيروس؛ أحد ملوك اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد، حربًا ضروسًا على الرومان، وحقّق نصرًا ساحقًا فـي النهاية، لكنّه كان انتصارًا مكلفًا جدًّا على الجيش الرومانيّ.

دُمّرت جيوشه في هذه المعركة الطويلة، ودُمّر اقتصاد بلاده كليًّا. أما في نظر بيروس الملك فقد كان هذا انتصارًا في الظاهر، ولكنّ النتيجة لم تكن غير الهزيمة؛ فلقد كانت نجاحاته العسكريّة المكلفة هي التي أنشأت المفهوم العصريّ الحالي (انتصار باهظ الثمن).

عندما ننظر إلى تاريخ الحروب المختلفة، فلن يكون من المبالغة القول: إنّ معظم الانتصارات في طبيعتها كانت باهظة الثمن؛ فعلى كلّ منتصر أن يعاني

نوعين من الخسائر: الأول، التضحية بالحياة والثروة والموارد، والآخر: فقدان الحبّ والاحترام من الطرف المهزوم. ولهذا، فلا يمكن لأيّ منتصر تجنّب معاناة هذه الخسائر. والفرق الوحيد بيـن منتصر وآخرَ هو أنّه في حين أنّ بعضْ المنتصرين يعانون الخسائرَ عاجلًا، فإنّ بعضهم الآخر يعانيها في وقت لاحق، ومسألة الخسارة هذه لا تتعلّق إلا بنهج العنف. إنّ نهجًا سلميًّا سوف يؤدّي تمامًا إلى نتيجة مختلفة، فلو اتّبعنا الطرائق السلميّة، فإنّ النصر وحده يكون النتيجة، إذ ليس هناك في هذه الحالة مجـال للهزيمة. وحتى لو قاد الطريق السلمي ظاهريًّا إلى هزيمة، فإنّ المحصلة النهائيّة ستكون انتصارًا؛ لأنّ الإنسان قد يخسر حربًا بالطريقة السلميّة، لكنه لا يخسر الفرص. التي يستطيع، عن طريق استغلالها جيّدًا بدء حياته من جديد وتحقيق النجاح.

انتهى عهد الحروب

كانت المواجهات العسكريّة في العصور القديمة منها والوسطى تجري عن طريق التحام الجنود والاشتباك بالسيوف وجهًا لوجه، أمّا في العصر الحديث فإنّ أسلحة معقّدة ومتطوّرة جدًّا تستخـدم، مثل الصواريخ النوويّة. والفرق الأساسيّ بين الزمنين هو في حجم المذبحة في كلّ حالة على حدة؛ فالضرب بالسيوف قد يتسبّب في قطع عدد قليل فقط من رؤوس المقاتلين، لكنّ العدد في العصر الذريّ تغيّر تمامًا؛ فالحرب تعني دمارًا شاملًا في الوقت الراهن؛ فالقنبلة التي تستهدف العدو تكون مدمّرة للمستخدم أيضًا. وبمواجهة هذه الحقائق الصعبة، علينا أنْ نسلّم بأنّ الحرب قـد أصبحت ممارسة عقيمة؛ فهي الآن مظهر من مظاهر الجنون، بدلًا من أنْ تكون إجراءً محسوبًا لتحقيق الهدف المرجوّ. وبعد ظهور الأسلحة النوويّة، أصبحت الحرب أمرًا لابدّ من

نبذه والتخلّي عنه؛ فعندما نرى أنّ اللجوء إلى الحرب لا يظهر أيّ نتائج إيجابيّة، فإنّ شنّها بعد ذلك، ناهيك عن أنها خطوة غير حكيمة، ليس إلا ضربًا من الجنون.

هناك من يعتقد أنّ إرساء السّلام يتطلّب حكومة عالميّة، وهذا يتطلّب قوّة شرطة مسلّحة وجيشًا ليسود السّلام في أنحاء العالم. لكنّ مفهوم الحكومة العالميّة هذا غير عمليّ؛ لأنّه لن يخدم الهدف إلا على نحو محدود جدًّا. وبذا، فإنّ مخطط الحكومة العالميّة لإحلال السّلام هو أبعد ما يكون عن المثاليّة.

دعونا نفترض أنّ مثل هذه الحكومة العالميّة قد دخلت حيّز الوجود، فحينئذ ستكون قادرة على إنشاء السّلام على مستوى الإدارة فقط. وبكلمات أخرى، فإنّ هذه الحكومة العالميّة المتوقعة لن تقدّم حتى في أفضل حالاتها إلا سلامًا اجتماعيًا، ولكنّ الأكثر أهميّة من هذا هو السّلام العقلي، الذي لن تحققه أيّ حكومة عالميّة.

إنّ السّلام على صورة الاستقرار الاجتماعيّ، كما تنفّذه الحكومات القائمة، كان سائدًا في ممالك العصور القديمة. لكنّ النتائج المرجوّة لم تتحقق مطلقًا. والإمبراطوريّة الرومانيّة تقدّم مثالاً على ذلك، فخلال مدّة حكمها التي دامت أكثر من ألف سنة، نشرت السّلام في نطاق واسع في الكرة الأرضيّة. وكانت هذه الحالة تُعرف باسم السلام الروماني. ولكن، على الرغم من إحلال السّلام عبر هذه المدّة الطويلة من الوقت، لم يكن هناك أيّ تقدّم علميّ أو فكريّ.

وهذا يدلّ على أنّه، على الرغم من الرّغبة في السّلام الاجتماعيّ، فإنّ هذا سيكون مفيدًا للتقدم البشري وعلى نحو جزئيّ فقط. إنّ العمليّة الحقيقيّة

للتقدّم البشريّ لن تتمّ إلا عندما يكون لدى الأفراد الذين يشكّلون المجتمع القدرة على التفكير السلميّ.وإضافة إلى المظهر الخارجي، فمن الضروريّ أن يكون لدى الناس سلام داخليّ لتتقدّم البشريّة، بحيث لا يعيشون حياة مليئة بالتوتّر غير الضروريّ، والإجهاد، والتناقضات. إنّ الشرط الأكثر أهميّة للتقدّم البشريّ هو عمليّة التفكير، فحالما ابتدأت، فإن عليها ألا تنحرف عن الطريق مواجهة العقبات. وهذا ضروريّ جدًّا لتطوّر الشخصيّة؛ فبهذه الطريقة فقط يمكن للفرد تحقيق أعلى مستوى روحاني وفكري.

إنّ السّلام بلا شكٍّ، يُعَدّ شرطًا أساسيًّا للتقدّم البشريّ. وهو، في الواقع، أساس هذا التقدّم كلّه. وإذا شكّل السلمان: الاجتماعيّ والسياسيّ 50% من هذا الأساس، فإنّ السلامين العقليّ والروحانيّ سيشملان الـ 50% الأخرى. إن إرساء السّلام على الجبهات الوطنيّة والدوليّة يبدو، عمليًّا، أمرًا صعبًا، وربّما لا يمكن تحقيقه البتّة بالمعنى المثالي. ولكن في الحالات جميعها، فإنّ سلام العقل أمر يمكن تحقيقه على وجه اليقين. أمّا السّلام الخارجيّ، فمن الضروريّ للجميع أن يتعاونوا من أجل المحافظة عليه، لكن تحقق سلام العقل الداخلي لا يحتاج إلا إلى التقليل من التعاون الخارجي او قد لا يحتاجه إطلاقًا فالفرد وبقراره الشخصيّ، يمكنه تحقيق مثل هذا السّلام، حتى لو أصبح كلّ من حوله ضدّ الفكرة. إنّ هذه المزية التي يمتلكها الفرد هي نعمة كبيرة من دون أدنى شكّ، وفي الحقيقة إنّها نعمة لا تضاهيها أيّ نعمة.

بيان للسلام

إنّ السّلام هو الدين الوحيد لكلّ من الإنسان والكون؛ فالأشياء الحسنة جميعها ممكنة في بيئة سلميّة، في حين لا يمكننا تحقيق أيّ شيء ذي طابع

إيجابيّ في غياب السّلام، سواء أأفرادًا كُنّا أم مجتمعات. وينطبق الأمر نفسه على الصعيدين: الوطنيّ والدوليّ.

ما السّلام؟

لقد عرّف العلماء السّلام بأنّه: (غياب الحرب)، وهذا التعريف صحيح بلا نقاش؛ فالسّلام في الواقع يعني عدم وجود حالة حرب أو عنف، ومعَ ذلك، فإنّ بعض الناس يعتقدون أنّ هذا التعريف ليس كافيًا؛ فهم يقولون: إنّ السّلام يجب أنْ ترافقه العدالة، وإنّ السّلام بلا عدالة ليس سلامًا. لكنّ وضع مثل هذا الشرط لتحقيق السّلام يُعَدّ أمرًا غير عمليّ؛ لأنّ السّلام لا يحقّق العدالة من تلقاء نفسه، ما يعني أنّ العدالة ليست بالضرورة عنصرًا من عناصر السّلام. فما يفعله السّلام في الواقع، هو إتاحة الفرص وتهيئة الظروف المواتية التي تمكننا من السعي إلى تحقيق العدالة وغيرها من الغايات البنّاءة. إنّ السّلام مرغوب فيه لأجل السّلام نفسه، وكلّ شيء آخر يأتي بعد السّلام، وليس جنبًا إلى جنب معَه.

إنّ سياسة السّلام تقدم دائمًا بدور (قنبلة) للسلام، بمعنى أنّها تقهر العدوّ من غير أيّ سفك للدماء. إنّ التاريخ يدلّ على أنّ قنبلة السّلام أثبتت دائمًا أنّها أقوى من قنبلة العنف؛ (فقنبلة) السّلام تعني الحياة، وقنبلة العنف تعني الموت. إضافة إلى أنّ (قنبلة) السّلام تقود إلى العمران والبناء، في حين أنّ قنبلة العنف تؤدي إلى الدمار. وبالمثل، فإنّ (قنبلة) السّلام تجلب التقدّم، أما قنبلة العنف فتجلب الفناء. وإذا كان السّلام يعزّز الإبداع، فإن العنف يأتي بالعكس تمامًا. وفي الوقت الذي تستند فيه قوّة (قنبلة) السّلام إلى الحبّ، فإن قنبلة العنف تستند إلى الكراهية.

وفي هذا السياق، نجد مثالًا مثيرًا للاهتمام بالنهج السلميّ في الهند. لقد ابتدأ كفاح الهند من أجل الحرّية عام 1857م. ولكن، بعد أكثر من ستين عامًا من التضحية، ظلّ الهدف السياسيّ المنشود حلمًا بعيد المنال. ثمّ عام 1920م، ظهر غاندي قائدًا لكفاح الحرّية، متّخذًا نهجًا مختلفًا تمامًا؛ فقد تخلّى عن أسلوب العنف، واختار مسار العمل السلميّ من أجل حركة النضال في سبيل تحقيق الحرية.

وقد أخذت الأمور منعطفًا إعجازيًّا بعد ذلك، حيث أصبحت الإمبراطوريّة البريطانيّة مشلولة؛ لأن غاندي حرم الإنجليز من أيّ مسوّغ لاستخدام العنف، والحكايةُ الآتية خيرُ مثال على ذلك: عندما أطلق غاندي حركة الحريّة في الهند عن طريق اتّباع الوسائل السلميّة بدلًا من اللجوء إلى العنف، أرسل ضابط بريطانيّ برقية إلى وزارته جاء فيها:

(أرجو أنْ تبرقوا لنا بتعليمات كيفيّة قتل نمر بأسلوب غير عنيف).

لذلك، فإنّ النجاح الذي لم يكن في متناول اليد، حتى بعد صراع طويل وعنيف، قد تحقق بطريقة سلميّة في مدّة قصيرة من الزّمن.

السّلام نظام كامل في قواعد السلوك

بدءًا للعنف والسّلام، على حدّ سواء، مدلولات واسعة؛ فالعنف يشمل كلّ شيء بدءًا من الكراهية، وصولًا إلى الحرب. وينطبق الشيء نفسه على السّلام، الذي يتضمّن كلّ شيء بدءًا من التسامح ووصولًا إلى الحبّ. إنّ كلًّا من العنف والسّلام نتائج للتفكير الإنسانيّ، الذين يتورّطون في أعمال العنف هم أسوأ الناس في هذا العالم، في حين أنّ الذين يختارون السلوك السلميّ

هم الأفضل. إنّ السّلام يعني الحياة الطبيعيّـة التي توفر هذه الفرص كلّها في بيئة صحيّة. وينبغي أنّ تسود الحالة الطبيعيّة، حيث يمكن للناس العيش والعمل من غير أيّ عائق خارجيّ.

أضف إلى هذا أنّ العنف يغلق الأبواب أمام الأعمال الإيجابيّة، في حين أنّ السّلام يفتح الأبواب لها، فيهيئ جوًّا من التعايش الإيجابيّ للفرد، والمجتمع والأمة عامة. إنّ أنواع الإنجازات جميعهـا تكون ممكنة في بيئة من السّلام؛ فإذا كانت مواقف العنف تعرقـل تلك الفرص، فإنّ السّـلام يساعدها على الازدهار؛ حيث تُرعى قدرات الإنسان الإبداعية وتُطوّر.

وبما أنّ السّلام نعمة للمجتمع البشريّ، فإنّ العنف لعنة. فالسّلام مصدر قوّة، والعنف هو العائق. السّلام حبّ، والعنف كراهية، ولما كان السّلام هو المحبّة، فإنّ العنف هو العداء. وفي الوقت الذي يقرِّب فيه السّلام بين الناس، فإن العنف يفرّقهم، والسّلام يعزّز مستوى عاليًا للثقافة البشريّة، ويعمل على ازدهارها، في حيـن أنّ العنف يعزّز ثقافة الغاب، والسّـلام يرفع الإنسانيّة إلى مستوى الوجود الاجتماعيّ المتحضّر، في حين يقود العنف إلى الانزلاق صوب دركات الهمجيّة، إضافة إلى أنّ السّلام يعزّز الحياة، أما العنف فنذير شؤم؛ موت ودمار، فضلًا على أنّ السّلام يبرز عناصر الخير في المجتمع إلى الصّدارة، في حين يفعل العنف عكس هذا تمامًا.

السّلام يحوّل الرديء إلى حَسَن

وَفقًا للطبيب النفسيّ الألمانيّ؛ ألفريد أدلر، فإنّ البشر يمتلكون مزية فريدة من نوعها، هي (قدرتهـم على تحويل السالب إلى موجـب). ما الذي يمكّن الإنسان من أداء هذا العمل الفذّ غير العاديّ؟ إنّ الجواب الوحيد هو أنّ ذلك

يتحقّق من خلال السّلام؛ فدماغ الإنسان كنز للقوّة غير المحدودة، فإذا فقد الإنسان طمأنينة النفس وقت الأزمة، فإنّه لن يستفيد فيها من قدرته العقليّة بطريقة إيجابيّة. إنّ التفكير السلبيّ عقبة في طريق التطور البشري، في حين أنّ التفكير الإيجابيّ يُعَدّ مانحًا للحياة؛ كونه يحفّز القدرات البشريّة. ولذلك، حين يتمكّن الفرد أو الأمة من المحافظة على السّلام في كلّ الحالات، فإنّ كثيرًا من الإمكانات تنفتح أمامه، وهذا يحدث عندما نتمكّن من تحويل السالب إلى موجب.

الطريق إلى تحقيق السّلام

إنّ السّلام ضروريّ للحصول على طريقة فضلى للعيش؛ سلام العقل، والسّلام في الأُسر، والسّلام في الطبيعة. واليوم في هذا العالم التقني الحديث، فإنّ الإنسان قد تمكّن من الوصول إلى كلّ ما يريد. ومعَ ذلك، وفي غياب السّلام، فقد أصبح كلّ شيء بلا مغزى. إنّ المطلوب لتحقيق توازن هو الحبّ، والرّحمة، والتسامح، والصبر، وروح التعايش.

كيف يمكن أن نحقق السّلام؟ إنّ الصيغة بسيطة جدًّا. اقنع بما تيسّر لك من غير أن تغتصب شيئًا من الآخرين، ولبِّ حاجاتك الذاتية من غير حرمان الآخرين ما هو لهم، وأشبع رغباتك من غير إحباط الآخرين، وحقّق طموحاتك من غير إنكار حقّ الآخرين في أن يقوموا بالمثل تحقيقًا لرغباتهم وطموحاتهم. وباختصار، حلّ مشكلاتك الشخصية من غير افتعال مشكلات لمن هم حولك. إنّ التعايش السلميّ هو السبيل الوحيد للوجود في هذا العالم.

ومعَ ذلك، فالحياة السلميّة لا يمكن تحقيقها إلا عندما يدرك البشر حدودهم ويلتزمونها. وَوَفقًا للمشيئة الإلهيّة، فإنّك تستطيع أنْ تأخذ من

العالم كلّ ما ترضي به حاجتك، لا جشعك. فيمكنك المتاجرة معَ الآخرين، لا استغلالهـم. ويمكنك أيضًا تعزيـز فرديّتك الشخصيّـة، ولكن ليس على حساب الأسرة والمجتمع. يمكنك أن تحيا حياتـك اليوميّة بالمحافظة على التقاليد الاجتماعيّـة وليس تدميرها، ولـك الحريّة الكاملـة لتعيش حياتك الخاصة، ولكـن مع الاهتمـام ببقية أفـراد المجتمع لا تجاهلهـم، ويمكنك استخدام الموارد لمصلحة الإنسانيّة، ولكن ليس من أجل تبذيرها، ويمكنك أيضًا الإفـادة من مـوارد الطبيعة لمنفعـة البشريّة، لا من أجـل تدميرها، إضافة إلى أنّ لك الحرّية في استخدام الوسائل السلميّة، لكنّك لست مخوّلًا باللجوء إلى العنف. لذا، فإنّ لك الحرّية في استخدام موارد الطبيعة، ولكن بالمحافظة على توازنها، إضافة إلـى أنّ لك الحريّة فـي استخدام الطاقة النوويّـة لأغراض سلميّـة، لا لبناء أسلحة دمـار شامل، ولـك الحريّة أيضًا لتغذية مشاعر المودّة والرحمـة، لا لتفسح المجال للكراهية والتحيّز، فأنت حرّ في تلبية حاجاتك ورغباتك الجسديّة، ولكن ليس بقتل روحك من الناحية الروحانيّة. وباختصار، فإنّ لديك الحريّة لتستمتع بالحياة من خلال التشارك مَعَ الآخرين، لا بالقضاء عليهم.

ثمن السّلام

لا نستطيع الحصول على أيّ شيء في هذا العالم من غير دفع ثمنه؛ فلكلّ شيء ثمن، وهذا ينطبق تحديدًا على السّـلام؛ فإذا كنّا نريد السّلام فعلينا أنْ نكون على استعداد لدفـع ثمنه أو نصبح محرومين منـه. ولكن، ما ثمن السّلام؟ إنّه التسامح؛ فنحن نعيش في عالـم من الاختلافات التي لا يمكن القضاء عليها، ولذلك ليس لدينا سـوى خيارين: التسامح أو التعصّب، ففي

حين أنّ التعصّب يقود إلى العنف، فإن التسامح يحقق السّلام، فحيثما كان التسامح كان السّلام، وحيثما كان التعصّب كانت الحروب وأعمال العنف. وهذه هي الصيغة العالميّة الوحيدة للتسامح من أجل السّلام، وهذه الصيغة نفسها يمكن تطبيقها بنجاح في الحياة العائليّة والاجتماعيّة، وكذلك على المستوى الدوليّ. إنّ السّلام يتطلب منّا تعزيز ثقافة التسامح؛ لأنّ التعصّب لا يؤدّي إلا إلى الحرب.

الطبيعة نموذج للسلام

إنّ السبب الجذريّ لمعظم مشكلاتنا في العالم الحاليّ يمكن أن يعزى إلى الانحراف عن نموذج المنهج السلميّ للطبيعة، الذي هو أفضل نهج نتّبعه؛ فالمعضلات جميعها التي نواجهها اليوم تنشأ لأننا لم نتّبع مثال الطبيعة.

فالنجوم والكواكب في حركة مستمرّة في مداراتها، لكنّها لا تتصادم مع بعضها، وهذا يظهر للإنسان كيفيّة المُضِيّ قُدُمًا من غير الصراع معَ الآخرين. والشمس أيضًا نموذج ممتاز، فهي ترينا كيف يجب أنْ نعطي الحياة للآخرين من غير أيّ تمييز بينهم، أيضًا، الشجرة مثال ساطع للإنسان، فهي تزوّدنا بالأكسجين الصحيّ والمفيد مقابل حصولها على غاز ثاني أكسيد الكربون الضارّ. وانظر إلى الورود كيف تنشر عبقها في كلّ مكان، من غير انتظار المقابل على فعل ذلك، والنبع المتدفق يروي الحقول من غير توقع أيّ شيء في المقابل. وخُلاصة الأمر أنه من غير غرس قيم الإيثار هذه بين بني البشر، فإنه من غير الممكن وجود حياة ذات معنى على الأرض.

وباختصار، فإنّ الإيجابيّة تسود في عموم الطبيعة، والسلبيّة لا وجود لها في العالم الطبيعيّ. وهذا يعلّمنا درسًا هو أنّ استجابتنا يجب أنْ تظل إيجابيّة في الأوقات جميعها، حتى في الحالات السلبيّة.

عالم الطبيعة الجميل

لا تقتصر العيش الإيجابيّ، في هذا العالم، على السلوك الأخلاقيّ فقط؛ وحري بنا أنْ نتّبع مسارًا إيجابيًّا في الأوقات كلّها والحالات جميعها؛ ففي هذا الكون الفسيح، لا يوجد إلا كرتنا الأرضيّة الصغيرة؛ حيث يمكن للبشر أن يعيشوا. وحتى الآن، لم نكتشف أيّ بقعة أخرى في هذا الكون تحوي أنظمة داعمة للحياة. ولذلك، فإنّ المحافظة على الطبيعة تُعَدّ مرادفًا للمحافظة على الحياة، في حين أنّ تدميرها سوف يؤدّي إلى الانقراض الكليّ، لذا فإنّ الانخراط في التعايش الإيجابيّ باستمرار يسهم في إنقاذ الحياة، في حين أنّ الفشل في القيام بذلك هو وسيلة مؤكّدة للانتحار.

هذا العالم الجميل الذي خلقه الله يمضي في طريقه إلى التدمير على يد الإنسان.

إنّ العنف واسع النطاق، والاضطرابات البيئيّة، وظاهرة الاحتباس الحراريّ أصبحت جميعها خطرًا أكبر من خطر حرب عالميّة ثالثة. وفي الواقع، فإنّها تبدو كما لو أنّ الحرب العالميّة الثالثة قد داهمتنا فعلًا، وهذا هو أكبر تهديد نواجهه هذه الأيام. ولهذا، أصبح لزامًا علينا أن نعمل بإخلاص واتحاد؛ لإنقاذ الطبيعة لمصلحة البشريّة جمعاء.

السّلاح النوويّ، من أجل ماذا؟

إنّ القنابل النوويّة والأجهزة التدميريّة الأخـرى تُعَدّ ضدّ المشيئة الإلهيّة تمامًا السائدة في عالم الطبيعة الجميل. إذن، لماذا يجب أنْ يكون هناك، وبعد ذلك، هذا التخزين الحاليّ للأسلحة النوويّة، الذي يُعَدّ أعظم تهديد، ليس فقط للسلام، وإنما أيضًا لبقاء الجنس البشريّ؟

هنا ينبغي التأكيد على أنّ الأسلحة النوويّة غير صالحة للاستعمال؛ فسلاح دمار شامل، كالقنبلة الذريّة مثلًا، لا يمكن استخدامه إلا مرّة واحدة فقط. لذلك، فإنّ هيروشيما وناجازاكي قد مثلتا نقطة توقف كاملة، لا وقفة مرحلية. ثمّ لماذا تحاول بعض الدول الحصول على مزيد ومزيد من القنابل النوويّة؟ الجواب: لأنّها تريد المحافظة على وضعها كقوى نوويّة، معَ أنّ هناك بديلًا أفضل بكثير من امتلاكهم القوّة النوويّة، إنه تدمير القنابل النووية جميعها، فمثل هذا الفِعل من شأنه أنْ يؤدّي إلى (انفجار) سلميّ، وأيّ شخص يتجرّأ على القيام بذلك سيظهر كأنه الفائز الروحانيّ في القوّة الأخلاقيّة العظمى، على عكس المتنافسين في السباق النوويّ؛ حيث قد لا يكون هناك أيّ فائز.

وممّا لا شك فيـه أنّ كونك أي دولة القوّة الأخلاقيّـة العظمى يجعل تحلّق آلاف الأميـال أعلى ممّن تعُدّ نفسهـا قوّة نوويّة عظمى. ومثـل هذه الخطوة الثوريّة لا يمكن اتخاذها على أساس ثنائـيّ الجانب، فمن الممكن تطبيقها على أساس أحادي الجانب. إنّ عمليّة نزع السلاح النووي ليست مجرّد فعل تدمير للأسلحة النوويّة؛ فنزع السلاح النوويّ، في الواقع، هو تحويل (قنبلة العنف) إلى (قنبلة السّلام)، وهذا يُحدث انفجـارًا سلميًّا. وأيّ دولة تثبت بأنّها جريئة بما يكفي لتغتنم هذه المبادرة السلميّة، ستخسر ظاهريًّا وضعها

كقوة نوويّة، ولكنها في الوقت نفسه ستكسب أوضاعًا أعلى شأنًا وقوّة، هي القوى الأخلاقيّة والروحانيّة العظمى. فمثل هذه القوة فقط يمكنها تلبية المطلب الملح، وهو بدء عمليّة السّلام. إن انفجار (السّلام) هذا يستطيع تحويل هذا العالم الغارق بالعنف إلى عالم يسوده السّلام.

السّلام سلوك إيجابيّ

السّلام هو نتاج موقف عقليّ إيجابيّ، في حين أنّ العنف هو نتيجة تفكير السلبي. إنّ السّلام هو الحالة الطبيعيّة للمجتمع، أمّا العنف فهو حالة غير طبيعيّة، والسّلام يتماشى وَفقًا لسنّة الطبيعة بقدر ما يكون العنف ضدّها؛ فعندما تسود الظروف السلميّة في المجتمع فإنّ الأنشطة جميعَها تحدث بأشكالها المناسبة، ولكنْ إذا أُخلّ بأجواء السّلام، فإنّ المسيرة الطبيعية للمجتمع ستتعطّل، وهذا القانون ينطبق على الإنسان، وكذلك على الكون كلّه؛ فوَفقًا لسنّة الطبيعة، فإنّ السّلام هو السرّ الوحيد لسير الأمور بسلاسة وانتظام في المجتمع البشريّ، وكذلك في بقيّة الكون. ولذلك، فإنّ السّلام شرط أساسيّ للإنسان، وهذا يستدعي المحافظة عليه في الحالات جميعها؛ فمن غير السّلام لا يمكن أنْ تكون هناك تنمية أو تقدّم، ولا يوجد أيّ عذر يبرّر على الإطلاق استخدام العنف، سواء على المستوى الفرديّ أو الوطنيّ. وبغضّ النظر عن الظروف المحيطة، فإنّنا لا نستطيع الاستغناء عن أجواء السّلام، لذا يجب علينا المحافظة على السّلام من جانب واحد؛ لأنّه ما من شيء نرغب في تحقيقه قد يتمّ من غير السّلام.

إنّنا إذا فشلنا في تحقيق السّلام، فإنّ علينا أنْ نواجه الدمار في كلّ ميدان من ميادين الحياة، فالخيار أمامنا ليس بين السلم واللاسلم، ولكنّه

بين السّلام والإبادة. وعلى هذا، فمن غير سلام لا يوجد أمل لبقاء الجنس البشريّ.

الراحة الروحانيّة

إنّ أكثر ما يزعج سنّة الطبيعة السلميّة يعزى أساسًا إلى حقيقة أنّ الناس أصبحوا ماديّين على نحو مفرط، وهذا هو التفكير الذي يؤدّي إلى استغلال الطبيعة، ممّا يؤدي إلى اضطراب في سنّة الطبيعة السلميّة هذه. فإذا اختار الناس طريق الاعتدال فإنّهم سرعان ما سيكتشفون أنّهم إذا كانوا مرتاحين ماديًّا في السابق، فإنّهم سيكونون مرتاحين روحانيًّا الآن. وما لا شكّ فيه أنّ الراحة الروحانيّة أفضل بكثير من الراحة الماديّة.

إنّ مرتكب العنف، سواء كان هتلر أو رجلًا عاديًّا، يعاني دائمًا تأنيبَ الضمير، في حين أنّ صانع السّلام يستمدّ الارتياح الكبير من جهوده. وإذا كان للمرء أنْ يفكر في النتيجة النهائية، فلن ينغمس أحد أبدًا في العنف.

وينبغي للجميع أنْ يضعوا في حسبانهم أنّ السّلام يتّفق مع البشريّة، في حين أنّ العنف يعني الانحدار إلى مستوى الحيوان.

السّلام حقّ الإنسان المطلق

إنّ ثورة السّلام هي نتيجة التفكير السلميّ؛ فالعقول السلميّة تعمل لعالم يسوده السّلام، فقد ولد الإنسان في سلام، ويجب أن يموت في سلام. إنّ السّلام حقّ الإنسان منذ الولادة، وهو أعظم نعم الله على بني البشر.



الفصل السادس: السّلام في الطبيعة

إنّ دراسة الكـون تظهر أنّ نظامه الممتـدّ يستند كليًّا إلـى مبدأ السّلام؛ فهناك عدد لا يحصى من الأجرام السماويّة في أنحاء هذا الكون، في حركة دائمة من غير أيّ تصادم يحدث بينها. إن كل واحد منها يدور وبدقّة متناهية داخل مداره، من غير التعدّي على أيّ مدار آخرَ، وهذا هو السبب، في عدم حدوث أيّ اشتباك أو مواجهة في عالم الطبيعة.

إنّ ثقافة الكون هي ثقافة السّلام، وهي أمـر مرغوب فيه للإنسان أيضًا. وعلى الإنسان أن يعتمد هذا المبدأ الشامل في حياته. وبنبذه طريق المواجهة، يجب عليه أن يختار طريق السّلام.

وبسبب الالتزام بثقافة السّلام هذه، فإنّ الكون يسير منذ بلايين السنين من غير أيّ تصادم قد يعكّر صفو نظامه. وهذا يعني أنّ ثقافة العنف لو سادت بدلًا من ذلك، فسنجد أنّ مختلف مكوّنات هذا الكون قد تصادمت وتدمرت، ولما أصبح الكون صالحًا للسكن منذ أمد بعيد.

إنّ الخالق الـذي أوجد نظام هذا الكـون قد خلق البشر أيضًـا، وقد أراد للإنسان أنْ يختار ثقافة السّلام التـي ترسخت في هذا الكون الفسيح. ومعَ ذلك، هناك فرق بين الإنسان والكـون؛ فقد فرضت ثقافة السّلام هذه على الكون بقوى الطبيعة، لكنّ الإنسان مُنح حريّـة العمل بنهج السّلام. ولذلك، ينبغي للبشر نشر هـذه الثقافة بإرادة واعية وطواعيّـة؛ كي يسود الانسجام حياتهم.

نظام الطبيعة

لقد وُضِع النظام في هذه الأرض، التي يقطنها الإنسان، منذ اللحظة الأولى لخلقها. وعليه، فقد أُعِدَّ كلّ شيء وَفقًا لخطّة في مصلحة البشريّة. وهذا يعني أنّ أيّ شيء يقوم به الإنسان على هذه الأرض، ينبغي القيام به من غير أيّ تغيير لسنّة الطبيعة. فلو عبث الإنسان بها ولو بأدنى الدرجات، فإنّ هذا سيؤدي إلى انهيار النظام الطبيعيّ الموضوع من الخالق وَفقًا لترتيب معيّن. ونتيجة لذلك، سوف ينتشر الفساد في كلّ مكان.

لقد حصلت في عالمنا أحداث لا تُعَدّ ولا تُحصى، يحكمها قانون الطبيعة، مثلًا: استمرار دوران الأرض، وتلقّي الضوء من الشمس، وهبوب الرياح، وبدء هطل الأمطار، وتدفّق مياه الأنهار، ونموّ النباتات والأشجار، وما إلى ذلك. إنّ هذه العمليّات جميعها من هذا النوع تستمرّ ليلًا ونهارًا، والأمر المبهر هو كيف أنّها تحدث بطريقة سلميّة جدًّا، فلا وجود للعنف، ولا للصدام، ولا للمواجهة.

وكون هذه هي الطريقة الطبيعيّة للإصلاح، فينبغي للبشر أنْ يتّبعوا طريقة الطبيعة هذه، نابذين العنف والمواجهة.

ولا ينبغي لهم أنْ يتصرّفوا كالفرد العنيف الذي يعتمد على أشياء، مثل السيوف والبنادق أو القنابل، ولكن ينبغي أن يستمدّوا قوّتهم من الصّفات البشريّة النبيلة، مثل الصّبر والتحمّل، وتجنّب الصّراع، والاستعداد للتكيف المتبادل، وما إلى ذلك. إنّ هذه الإستراتيجيّات من شخص محبّ للسلام هي في توافق معَ سرمدية وحتميّة قوانين الطبيعة، الذين يعارضونها هم بالتأكيد

سيعملون على إيجاد اضطرابات كبيرة في كلّ مكان، ولن يكونوا قادرين على إنشاء نظام صالح.

قانون التحوّل

يحتاج جسم الإنسان إلى الدّم في نظامه للبقاء على قيد الحياة، ولكنّنا لا نستطيع تحصيل الدّم الجاهز في هذا العالم. لهذا، فإننا بحاجة إلى نظام يتحول فيه اللادم إلى الدّم، بعد المرور في عمليّة طبيعيّة معيّنة، ومن غير هذه العمليّة لن نتمكن من تأمين الدّم لأنفسنا.

مثلما أنّ الدمّ ضروريّ لوجودنا الماديّ، فإنّ السّلام ضروريّ أيضًا لبقائنا الاجتماعيّ، ولكنّنا لا نستطيع العثور على سلام جاهز في هذا العالم، ولذلك فإنه ينبغي لنا أنْ نعمل على تطوير عمليّة تحوّل اللاإسلام إلى سلام. وعمليّة صنع السّلام هذه هي ما عبّر عنها يسوع المسيح قائلًا:

(أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) (لوقا، 20:25)

هذا يعني أنّه من خلال تجنّب الصدام وجهًا لوجه في ظلّ ظروف غير مواتية، فإنّنا قد نكسب الوقت لتحقيق أهدافنا.

ويمكن التعبير عن هذه الصيغة في سياق السّلام كالآتي: تحمّل حالة اللاسلم؛ حتى تتمكّن من الوصول إلى حالة السلم، وهذه هي الطريقة لتحويل اللاسلام إلى سلام في هذا العالم، فما من طريق آخرَ غيره.

إنّ نظام الطبيعة كله يعتمد على مبدأ التحويل، وكلّ شيء في عالمنا قد خضع في مرحلة ما لعمليّة تحويل. فالمياه قبل تحويلها كانت موجودة على

شكل غازين مختلفين؛ فوَفقًا لقانون الطبيعة، فإنّ اللاماء قد حُوِّل إلى ماء، وتنطبق هذه العمليّة على الظواهر الأخرى جميعها في العالم.

دعونا ننظر في مثال آخر، ألا وهو الشجرة؛ إذ يستحيل أن نراها وقد وقفت أمامنا فجأة على شكلها المتطوّر الذي وصلت إليه؛ فهناك عمليّة الطبيعة، التي من خلالها تُحوّل البذرة مرورًا بمراحل إلى شجرة. يمكننا أنْ نقول: إنّ هناك عمليّة في الطبيعة تحوّل اللاشجرة إلى شجرة، وبعدها فقط تقف الشجرة على الأرض مختالة بعظمة شكلها.

وبالمثل، فإنّ البقرة لا تعطي الحليب إلا بعد أنْ تتمّ عمليّة طبيعيّة للتحوّل داخلها. ويبدو الأمر كما لو أنّ البقرة مصنع للطبيعة، يحوّل اللاحليب إلى الحليب؛ هذا السائل المغذي.

وبطريقة مماثلة، فإنّ غذاء الإنسان الذي يحتاج إليه للحصول على قوّته لا يأتي إلى حيّز الوجود إلا إذا حُوِّل غير الصالح للأكل إلى صالح للأكل في مصنع الطبيعة. لهذا، يحوّل الجهاز الهضمي للإنسان الصالح للأكل من هذه الموادّ إلى لحم ودم.

إنّ مسألة السّلام تندرج أيضًا في إطار هذا القانون العامّ للطبيعة؛ فالسّلام أمر حيويّ لوجودنا الاجتماعيّ، ولكن لا يمكننا العثور على سلام مُعَدٍّ في هذا العالم. لذلك، وعلى المنوال نفسه، فإنّ السّلام لا يمكن الحصول عليه إلا من قِبل أولئك الأفراد -أو المجتمع- الذين لديهم القدرة على تحويل اللاسلام إلى سلام. ويمكن أنْ نجد السّلام فقط إذا أظهرنا هذه المقدرة.

والآن، دعونا نرى كيف يمكن تحويل هذا اللاسلام إلى سّلام، ويمكن تلخيص هذه العمليّة في إعطاء ردّ فعل إيجابيّ في حالات سلبيّة.

يعمل عالمنا على مبدأ المنافسة، وهذا هو السبب وراء عدم غياب التحدّيات والاستفزازات عن أي حالة؛ فلا يمكن لعالمنا أبدًا أن يكون خاليًا منها. إنّ العلاج الوحيد لذلك هو رفض الرضوخ للاستفزاز حتى في الحالات الاستفزازيّة. وعليه، فإنّ السّلام هو نتيجة لهذه الأخلاق أحاديّة الجانب.

لا يمكن أنْ نجد شيئًا جاهزًا في هذا العالم؛ فكلّ شيء لابدّ من خضوعه لعمليّة التحويل، وهذا هو السبب في أننا لا يمكن أبدًا أنْ نجد السّلام الجاهز. هنا، يجب علينا أنْ نستجمع ما نملك من الحكمة لتحويل اللاسلام إلى سلام، وبذلك فقط نستطيع امتلاك السّلام. وتمامًا كما ينطبق هذا المبدأ على حياة الفرد، فإنّه ينطبق أيضًا على المستويين: الوطنيّ والدوليّ.



الفصل السابع: السّلام في الأديان المختلفة

تولي الأديان كلّها أهميّة كبيرة للسّلام؛ كونه يُعَدُّ أكبر مصدر قلق للإنسان. وفي الواقع، فإنّ السّلام هو جوهر الأديان جميعها، والسبب هو أنّه لا يمكن أبدًا تحقيق أيٍّ من أهداف الدين والوفاء بها من غير سلام. فأهداف كلّ دين، من حيث المبدأ، هي التنمية الرّوحانيّة للإنسان، وتحويل كلّ فرد إلى مواطن مسؤول. ولا يمكن لهذا النوع من التعليم والتدريب أنْ يتمّ من غير أجواء سلميّة.

هنا، ومن غير الدخول في تفاصيل كثيرة، أودّ أنْ أعرض بإيجاز تعاليم ديانات مختلفة في هذا الصدد. (وفي الختام، سأعرض مفهوم الإسلام للسلام على نحو أكثر تفصيلًا؛ والسبب هو أنّ العنف في وقتنا الحاضر يقترن ذكره مع ذكر دين الإسلام. ويُعتقد على نطاق واسع أنّ الإسلام يسوِّغ العنف، في حين أنه من خلال دراستي للموضوع، فإنّ هذا المفهوم يتعارض معَ الحقائق الفعليّة).

السّلام في الديانة اليهوديّة

يعود تاريخ اليهوديّة إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة. فوَفقًا للتقاليد اليهوديّة، عندما غادر بنو إسرائيل مصرَ ووصلوا إلى صحراء سيناء، فإنّ الله أعطاهم الوصايا العشر الأساسيّة لتحكم بقاء حياتهم الاجتماعيّة، وإحدى هذه الوصايا كانت:

(لا تقتل) (سفر الخروج، 20:13)

وصيّة الكتاب المقدس هذه تحظر أنواع العنف جميعها، سواء أفرديّة كانت أم اجتماعيّة، وسواء أموجّهًا كان العنف ضدّ مجتمع المرء نفسه أم ضدّ مجتمع آخر. ولقد أوحى الله تعالى هذا الأمر مباشرة إلى موسى عليه السّلام. وَوَفقًا للتقاليد اليهوديّة، فإنّ هذه الوصيّة تدخل في حكم الأمر المطلق.

وهناك وصيّة أخرى في التوراة تستحقّ الذكر هنا في هذا الصدد؛ فهي تجسّد التعليم الأخلاقيّ كما هو شائع في الأديان جميعها، على الرغم من التعبير عنها بطرائق مختلفة. وتتلخّص هذه الوصيّة في كلمات التوراة التي جاءت على النحو الآتي:

«ما هو مكروه (أو مؤذ) لك، لا تفعله لأيّ إنسان آخر».

وفي سياق السّلام، فإنّ هذه التعاليم أساسيّة جدًّا، فمن الواضح أنّنا لن نجد أيّ شخص في هذا العالم يرغب في أنّ يكون ضحيّة للعنف؛ لأنّ العنف بغيض للجميع. وفي ضوء هذا الواقع، فمن الضروريّ أنّ يمقت الإنسان أيضًا ارتكاب أعمال العنف ضدّ الآخرين، ولايجب عليه أن ينغمس في أعمال العنف ضدّ الآخرين تحت أيّ ظرف من الظروف. وما لا شكّ فيه أنّ هذه النصيحة عامّة في تطبيقها؛ فهي ليست موجّهة إلى فرد فقط، بل أيضًا إلى المجتمع كلّه. وبالتأكيد، ومثلما وُضِعَ معيار للسلوك الفرديّ، فقد وُضِعَ معيار للسلوك الاجتماعيّ أيضًا.

وبالرّجوع إلى الآية سالفة الذكر من التوراة، فقد قال باحث يهوديّ، على نحو صحيح:

«هذه هي التوراة كاملة، والباقي ما هو إلا تعليق».

وفي التــوراة، فإنّ أشعيــا، وهو نبيّ من بنــي إسرائيل، يصـف عالمًا من العدالة، في هذا العالم المرغوب فيه بشدّة: «يجب على الناس تحويل سيوفهم إلى محاريثَ ورماحهم إلى مناجل قطاف. ولا يحقّ لأمة أنْ ترفع السيف ضدّ أمّة، وعليهم ألا يتعلّموا الحرب بعد ذلك» (إشعياء 2:4).

تبيّن هذه الآية من التوراة أنّه وَفقًا للديانة اليهوديّة، فإنّ المجتمع الإنسانيّ الأمثل هو المجتمع الذي يدمّر فيه الناس أسلحتهم؛ حيث لا مجال للحرب، وحيث تُبنى الحياة على أساس من السّلام لا العنف.

وتفسّر هذه الآية من التوراة من قبل باحث يهوديّ كالآتي:

«لا يكفي أنْ نأخذ في الحسبان هذه الموعظة السلبيّة بعدم القتل، ولكنْ بتحويل الطاقة البشريّة والجهود المبذولة إلى أفعال سلميّة وبنّاءة».

وبالمثل، فإنّ هناك آية أخرى من التوراة تستحق الذكر؛ فهي تصف وصايا الله المباركة:

«على الذئب والحَمل أنْ يرعَيا معًا، وعلى الأسد أنْ يأكل التبن كالثور، والغبار يجب أنْ يكون غذاء الثعبان. ولا يجوز لهم أنْ يؤذوا أو يفسدوا في كامل جبلي المقدس» يقول الرّبّ. (أشعياء، 65:25)

يخبرنا هذا الاقتباس بلغة رمزيّة كيف يكون المجتمع المرغوب فيه من الله. إنّه مجتمع حيث يعيش الضعفاء والأقويـاء جنبًا إلى جنب من غير الإضرار بمصالح بعضها، وحيث يتمتّع الإنسان بالحقوق نفسها التي يتمتّع فيها كبار الشخصيّـات المهمّة. إنّه مجتمـع يمكن للناس العيش فيـه بسلام من غير الخوف من أذى غيرهم؛ حيث يجد الناس السلم في الآخرين لا العنف.

السّلام في الديانة المسيحيّة

وُلِد يسوع المسيح عليه السلام منذ ألفي عام في القدس (فلسطين). وربما يكون أتباعه اليوم أكثر من أتباع أيّ دين آخر.

إنّ تعاليم المسيح منصوص عليها في العهد الجديد. وهي تشير إلى أنه قد شدَّد كثيرًا على عبادة الله، وحُبّ البشر، وخدمة الإنسانيّة، والتنمية الرّوحانيّة، والترفّع عن الماديّة، ومعاملة الآخرين بالحسنى، حتى لو لم يستجيبوا، لذا فهذه الفضائل كلها التي لا ترتبط بأيّ طريقة بالحرب والعنف تنبع من امتلاك مجموعة قيم عليا.

ويمكن غرس هذه القيم كلها في المجتمع عن طريق الإقناع، وليس عن طريق الإكراه.

إنّ تعاليم المسيح في العهد الجديد تخبرنا بوضوح أنّ السّلام كان مهمًّا في نظره، لدرجة أنّه استمتع بإحلال السّلام بأيّ ثمن. وفي إحدى خطبه، قال:

«طُوبَى لِصَانِعِي السّلام، لأَنَّهُمْ أَبْنَاء اللَّهِ يُدْعَوْنَ». (5:9)

وهذا يدلّ وَفقًا لتعاليم المسيح، على أنّ المهمة الأكثر مباركة هي في إحلال السّلام في العالم، والسّلام في حياة الأسرة، والسّلام في الحياة الاجتماعيّة، والسّلام في الحياة الوطنيّة، والسّلام في الحياة الدوليّة. ولعلّ قول المسيح هذا هو ربّما تحقيق لهذا العالم السلميّ:

«ليأتِ ملكوتُكَ، لتَكُنْ مَشيئَتُكَ كما في السماءِ كذلكَ علَى الأرضِ». (6:9)

في هذا الاقتباس من العهد الجديد ، ما سمّي بملكوت الله، يمكن التفكير فيه أيضًا بأنه ملكوت السّلام.

إنّ تعاليم السيّد المسيح تولي أهميّة كبيـرة للمحبّة وحسن السلوك، وقد أعرب عن هذا في أحد أقواله في الكتاب المقدس:

«لكنّي أقول لكم أيُّها السَّامعـون: أحبُّوا أعداءكم، وأحسِنـوا إلى مُبغضِيكم». (6:27)

وهذا يعني أنّه يجب أنْ تحبّ الجميع، حتى الأعداء، ويجب أنْ تتّخذ موقفًا سلميًّا نحو الجميع، حتى معَ أولئك الذين اختاروا الإيذاء الجسديّ. إنّه هذا السلوك الجيّد أحاديّ الجانب الذي أعرب عنه برمزيّة:

«مَن لطمك على هذا الخدّ فاتـرك له الآخر، ومَنْ أخـذ رداءك فلا تمنعه أن يأخذ قميصك أيضًا. وكلُّ مَنْ سألك فأعطِه، ومَنْ أخذ ما لكَ فلا تُطالبه به». (30-29:6)

وهذا ليس تشجيعًا على أنْ تكون سلبيًّا. إنّه، وبلغة رمزيّة، درسٌ في الأخلاق أحاديّة الجانب. إنّ هذه التعاليم يمكن التعبير عنها كالآتي: أحلل السّلام بأيّ ثمن، لا تقابل العنف بالعنف. فبدلًا من ذلك، قابل العنف بممارسة التمرين أحاديّ الجانب في الصّبر، وتجنّب الصراع، حتى لا تعكّر صفو السّلام.

السّلام في الديانة الهندوسيّة

تستند الهندوسيّة إلى مبدأ اللاثنائيّة، معنى هذا أنّه في هذا العالم، فإنّ الخالق والخلق ليسا كيانين مختلفين، بل هما بالأحرى الحقيقة نفسها تتجلّى في أشياءَ مختلفة وكائنات مختلفة في هـذا العالم. وَوَفقًا لهذا المبدأ، فإنّ

الإنسان وأخاه الإنسان همـا وحدة واحدة متشابهة، فليسـ هناك فرق بين الواحد والآخر.

وهذا المفهوم يعطي إحساسًا بشعور المشاركـة للكائنات الحيّة جميعها، وينفي مبدأ الآخر. وفي الواقع، فإنّ شعور الآخر يختفي ببساطة. وبهذا، فإنّ ارتكاب أعمال عنف أو عدوان ضدّ الآخرين، من حيثُ المبدأ، هو كارتكابها بحقّ النفس ذاتها. إنّ هذا المفهوم، هو مصدر فكر السّلام في الهندوسيّة.

ولقد سمّاه المؤرّخ البريطانيّ، أرنولد توينبي، مفهوم السّلام: (عِشْ ودع غيرك يعيش). وهذا يعني، أنّنا يجب أنْ نمنح السّلام للآخرين لنحصل عليه في المقابل منهم.

ولد ماهافير Mahavir الشخصية الرابعة والعشرون في تسلسل المرتبة الدينيـة الهندوسيـة (التناسخ) لعائلـة هندوسيّة فـي الهند بعـد تأسيس الهندوسيّة بألفيـن وخمسمئة سنة، وقد أرسى خمسة مبـادئ للدين، وعلى الرغم من أنّ مصطلح (نبذ العنف) ربمّا لم يكـن موجودًا في ذلك الوقت في الكتب المقدسة لهندوسيّة القديمة، فإنّ أوّل هذه المبادىء وأهمّها كان (أهيمسا Ahimsa)، الذي يعني عدم الإصابة. وَفقًا لهذا المبدأ، فإنّ العنف والعدوان من أيّ نوعٍ هو أمر خطأ تمامًا. ويمكن تلخيص هذا الاعتقاد في هذه الكلمات: قتل كلّ ذي إحساس خطيئة.

لقد اعترف الزعماء الدينيين الهندوس بـ (ماهافير) على أنه الشخصية الرابعة والعشرون في تسلسل المرتبة الدينية الهندوسية (التناسخ). وبهذه الطريقة، فإنّ مفهوم أهيمسا قـد أصبح أيضًا جزءًا مـن الهندوسيّة. وفي القرن العشرين أيضًا، كان هناك المثال الآخرُ الكبير، وهو المهاتما غاندي،

المصلح الهندوسيّ ذو السمعة العالميّة، الذي فسّر كلمات (باغواد غيتا، أحد النصوص الدينية الهندوسية) في ضوء مبدأ عدم اللجوء إلى العنف، وأطلق حركة حريّة ملتزمة تمامًا بهذا المبدأ.

وقد وضّحت الموسوعة البريطانية (1984) الدرجة التي كان فيها المهاتما غاندي من دعاة السّلام بالقول: «لقد كان غاندي أول من فسّر أهيمسا على نحو إيجابيّ تحت مظلّة الالتزام الاجتماعيّ».

التسامح بصفته إحدى القواعد الأساسيّة في الديانة الهندوسيّة

إنّ مفهوم التسامح هذا يصل إلى الحدّ النهائيّ لتشجيع الاعتقاد بحقيقة الأديان جميعها. ووفقا للنص المذكور أعلاه، فإنّ كلّ مسار دينيّ يؤدّي نحو الوجهة نفسها: الحقيقة. فعندما قال أحد شخصيات النص: (كلّ دين صحيح)، فقد كرّر بهذا الاعتقاد الهندوسيّ وعلى نحو صحيح. ففي الهندوسيّة يمكن إعطاء كلّ تقليد دينيّ اعترافًا متساويًا.

وقد أوردت موسوعة بريتانيكا تحت عنوان (الهندوسيّة):

«إنّ الهندوسيّة تتضمّن أشكال الاعتقاد والعبادة جميعها من حيثُ المبدأ، من غير فرض انتقاء أيّ منها أو استبعاده».

وبعبارة أخرى، فإنّ هذا المفهوم العامّ للتسامح يرشدنا إلى كيفيّة العيش في سلام معَ الآخرين، وينبغي لنا ألا نتبنّى العنف تجاه أيّ شخص آخر.

وكما نَعُدّ أنفسنا على حقّ، فعلينا بالمقابل أنْ نَعُدّ الآخرين على حقّ أيضًا.

ومن حيثُ المبدأ، فإنّ اللجوء إلى العنـف تجاه أيّ مجموعة بشريّة يُعَدّ غير قانونيّ.

السّلام في الديانة البوذيّة

تعـدّ البوذيّة ديـن إلحاد، علـى خلاف الديانـات الأخرى؛ فهـي لا تغذّي الاعتقاد بوجود خالق بصفته مفهومًا مركزيًّـا. وبدلًا من ذلك، فإنّ النظام البوذيّ يستند إلى مجموعة من المبادئ الأخلاقيّـة. ويمكن تسمية الأسس البوذيّة فلسفةً أخلاقيّة، أو طريقة أخلاقيّة للحياة.

لا يوجد توثيـق تاريخي لحياة بـوذا غوتام (سيـدارت غوتـام)، مؤسّس البوذيّة، ولكن يُعتقد أنّه وُلِد في شمال الهند عام 560 قبل الميلاد. وعندما بلغ سنّ الرشد، رأى بعض مشاهد البؤس البشريّ. ولما كان شخصًا حسّاسًا، فقد بدأ يتأمّل في أسباب الألم والمعانـاة، وكرّس بعدئذ نفسه بهدف إنهاء الألم والمعاناة في الحياة البشريّة.

وبعد مدّة طويلة من التأمّل والتفكير العميق، صاغ بعض المبادئ الأخلاقيّة.

ولأن هدفه الرئيس في الحياة كان إنهاء البؤس البشريّ، فقد علّق أهميّة قصوى على حقيقة أنّه ينبغي للإنسان أنّ يحرّر نفسه من أنواع الرّغبات كافة؛ لأن هذه الرّغبات كافة هي التي تقود الإنسان إلى أنواع الشرور جميعها، بما في ذلك العنف. وقـد كانت المبادئ التي وضعها لتحكـم حياة الإنسان كما يأتي:

على الإنسان أنّ يتخلّى عن الرغبات جميعها، وأفكار الشهوة جميعها، والمرارة،

والقسوة. وعليه ألا يضرّ كائنًا آخرَ، ويجب عليه أيضًا أنْ يمتنع عن أعمال القتل كلّها. ولابدّ من أن يتولّى الإنسان منصبًا لينفع الآخرين ويدرأ الضرر عنهم.

فمن حيثُ المبـدأ، ليس هناك أيّ مـكان للعنف في البوذيّـة، ولأنّ هدفَ البوذيّة في الأساس إصلاحُ الشخصيّـة، فإنّ هذا لا يمكن أنْ يتحقّق إلا من خلال السعي بجد ضدّ رغبات النفس، بدلًا من ارتكاب العدوان ضدّ الآخرين. لذلك يصح القول: إنّ العنف شيء غريب على المعتقد البوذيّ. وفكريًّا، فإنّه لا علاقة مباشرة للبوذيّة بالعنف.



الفصل الثامن: السّلام في الديانة الإسلاميّة

ما لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم كتاب للسلام، وليس كتابًا للحرب أو العنف. ويمكن الحكم على هذا من حقيقة أنّ آيات القرآن جميعها مرتبطة على نحو مباشر أو غير مباشر بالسّلام؛ فاستهلاليّة القرآن هي:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وقد تكرّرت هذه البَسْملة في القرآن الكريم ما لا يقلّ عن 114 مرّة، وهذه إشارة إلى أنّ أعظم صفة للخالق الأسمى الذي أرسل هذا الكتاب هي الرّحمة. وفي الواقع، فإنّ موضوع هذا الكتاب المقدّس كلّه هو رحمة الله الشاملة.

فالجزء الأكبر من هذا الكتاب المقدّس يدعو إلى السّلام بقوّة، سواء على نحو مباشر أو غير مباشر، ومن آيات القرآن الكريم الكثيرة، نجد هناك أربعين آية تتعامل معَ أوامر شنّ الحرب، في حالة الدّفاع عن النفس فقط، وهذا يشكّل ما هو أقل من 1%، ولنكون أكثر دقّة، فإنّ النسبة هي 0.6% فقط.

إنّ أولئك الذين يقبلون القرآن كتابًا لله، سيُعَدّون مؤمنين حقيقيين فقط عندما يتّبعون الأحكام الواردة فيه، ليصبحوا من محبّي السّلام بالمعنى الكامل للكلمة.

وعليهم ألا يشركوا أنفسهم في أيّ عمل عنف، وتحت أيّ ظرف من الظروف. ومن أجل إجراء دراسة هادفة لهذا الموضوع، لابدّ لنا من التفريق بين الإسلام والمسلمين. فليس بالضرورة أن يكون عمل المسلم مستمدًّا من تعاليم الإسلام. وفي واقع الأمر، فإنّه يجب الحكم على ممارساته وَفقًا

لمعايير الإسلام -وهـي عقيدة- بدلًا مـن الحكم على الإسـلام من خلال ممارسات المسلم. فأولئك الذين هجروا تعاليم الإسلام لا يمكنهم الادعاء بأنّهم إسلاميّون في سلوكهم، حتى لو كانوا يعدّون أنفسهم أبطال الإسلام. فلا يكون المسلمون مسلمين إلا عندما يتّبعون التعاليم الأساسيّة لديانتهم.

السّلام من أسماء الله تعالى

لقد أورد القـرآن أسماء الله الحسنـى الكثيرة، التي كان مـن بينها اسمُ السّلام. إنّ الله يحبّ السّـلام والأمن لدرجة أنّه اختـار السّلام واحدًا من أسمائه. وهذا يعني أنّ الله تعالى تجسيد للسلام بنفسه.

وقد فسّر الخطابيّ هذه الآية بقوله:

«إنّ الله هو الكيان الذي يستمدّ الناس منـه الأمن والأمّان، الذي يأخذ الناس منه تجربة السلم لا العنف». (القرطبيّ، الجزء 18، ص 46)

وقد وضع الله المعايير العليا لتحقيقها؛ أي إنّه عندما يعتمد تعامل الله معَ البشر على أساس السلم والأمن، فينبغي للإنسان بعد ذلك أيضًا التعامل معَ غيره من البشر بطريقة مسالمة، لا قسوة فيها ولا عنف.

لا تطرّف

ولقد صدر الأمر الآتي في الجزء الرابع من القرآن الكريم:

﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ النساء: 171.

ووردت النقطة نفسها في الحديث الشريف؛ حيث قال رسول الإسلام ﷺ:

«إياكم والغلوّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ». (النسائيّ، ابن ماجة، مسند أحمد)

إنّ الغلوّ يعني التطرّف والمبالغة. وطريق التطرّف هي طريق غير صحيحة. مهما كانت الظروف؛ لأنّها تعارض روح الديانة. وفي الواقع، فإنّ التعرّض للتطرّف يبلغ ذروته في أوقات الحرب والعنف. فأولئك الذين يعانون ميولًا متطرّفة يبقون غير راضين عن مسار الاعتدال؛ لأنّ هذا يجرفهم بعيدًا عن المثاليّة. وهذا هو سبب انحدارهم نحو العنف بهذه السهولة، وهم على أتمّ الاستعداد وأكثر من أيّ وقت مضى لبدء العدائيّة تحت دعوى تحقيق أهدافهم.

ومن الجدير بالذكر أنّ الاعتدال، وهو نقيض التطرّف، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسّلام، فعندما يملك الناس فضيلة الاعتدال، فهم بالضرورة سيفكّرون وَفقًا للسلام، وسيتّصف نضالهم بالسلميّة. فأينما وُجد الاعتدال وُجِدَ السّلام، والعكس صحيح.

وفي تناقض واضح معَ هذا، فإنّ موقف المتطرّف سيؤدّي به قريبًا جدًّا إلى المواجهة والعنف؛ فالتطرّف والعنف مترابطان بوضوح، وهذا هو السبب الذي عَدّت فيه الديانة التطرّف شيئًا بغيضًا. ويمكن القول: إنّ العنف هو اسمُ آخرُ للتطرّف، وأنّ الاعتدال هو الامتناع عنه.

قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعًا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ

رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ المائدة: 32.

إنّ الجريمة فعل رهيب حقًّا؛ فقتل الإنسان غير جائز إلا عندما لا يتوافر علاج آخرُ لدرء الخطر الذي يمثله على السلم الاجتماعيّ، وقتل النفس الواحدة بغير وجه حقّ كقتل الناس جميعًا، والفرق بينهما يكون في الدرجة لا في الطبيعة؛ فقتل نفس واحدة لا يقلّ بشاعة عن مقتل البشر جميعهم.

وقد يبدو مثل هذا القتل من غير جزاء مناسب مسألة بسيطة، لكنّ مثل هذا الفعل يحطِّم تقاليد احترام الحياة كلّها.

والآية أعلاهُ من القرآن تؤكّد أهميّة السّلام والأمن في الإسلام؛ فإذا قُتِلَ شخص ما من غير وجه حقّ فعلى الإسلام أنّ يطالب بتحرّك المجتمع كلّه على نحو كبير في وجه هذه الجريمة.

وأن يعملوا على نحو متّحد لاستعادة حالة من السّلام والأمن، وينبغي أنْ تعامل على أنّها مسألة عظيمة الأهميّة، كما لو كانت البشريّة كلّها تتعرّض للهجوم.

إطفاء نار العنف

وقد جاء في القرآن الكريم ما يأتي:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ المائدة: 64.

إنّ هذه الآية من القرآن تدل على خطّة الوجود المخصوصة بخالق هذا العالم، وهي خطة تقوم على مبدأ السّلام، وهذا يعني أنّه كلّما قرّر أحد

جانبيّ المعارضة العمل على تأجيج نار حرب، فينبغي للآخر أنْ يحاول إخمادها باللجوء إلى إستراتيجيّة سلميّة لمنع العنف من الانتشار. ولا ينبغي أبدًا أنّه إذا ما انغمس جانب في أعمال العنف، كان على الآخر أنْ يحذو حذوه. فالطريقة الصحيحة والمرغوب فيها لنعيش حياتنا في هذا العالم ليس بمواجهة القنابل بمثلها، وإنّما بنزع فتيلها وإبطال مفعولها. وينبغي أن يتمّ هذا في البداية. فإذا أردنا الرّوح الحقيقيّة للتعليم القرآنيّ الكريم، فعلينا إدراك أنّ التصدي للقنبلة بأخرى هو طريق الشيطان. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الطريقة التي يؤيّدها الله هي في تحييد القنبلة.

من الطبيعيّ جدًّا لأيّ مجتمع ما أنْ يواجه بعض المواقف السيئة؛ فيستحيل على أيّ جماعة من البشر أنْ تكون قد خلت في حياتها تمامًا فيما مضى من أحداث غير مرغوب فيها. وبناءً على ذلك، فإنّ الحلّ الفعليّ للمشكلة ليس في وضع حدّ للأحداث غير السارّة في حدّ ذاتها، وإنّما في الامتناع عن السماح بتفاقم الأمور، وهو ما يحدث إذا التقى حدثان من الأحداث غير السارّة بعضهما مع بعض. ومرّة أخرى، أودّ أنْ أؤكّد مجدّدًا أنّ القنابل لا ينبغي أن تُواجَه بالقنابل، وبالامتناع عن العنف فإنّنا نستطيع أنْ نحدّ من انتشار الآثار المدمّرة للاحتكاك الاجتماعيّ بوصفه حلًّا وحيدًا ممكنًا.

الحرب للدّفاع

جاء في القرآن الكريم ما يأتي:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الحج: 39.

هذه وليست مجرّد أوامر قرآنيّة موجّهة للمؤمنين من المسلمين، بل بيان

لقانون دوليّ. لقد وضّحت الآية بوضوح أنّ الحرب جائزة فقط من أجل صدّ أيّ عدوان سافر، وهـي تُشنّ هنا دفاعًا عـن النفس. أمّـا الأشكال الأخرى للحرب جميعها فتأتي تحت عنوان العدوان، ولا مكان شرعيّ للمعتدين في هذا العالم. فوَفقًا لهذه الآية، لا يوجد أيّ مبـرّر لأيّ حرب أخرى غير الدفاعيّة، عندما يُضطرّ أحد إلى القيام بذلك.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم، فإن الحرب الدفاعيّة لا يمكن خوضها إلا بعد إعلانها رسميًّا، ومن قِبل حكومة شرعيّة. أمّا المنظمات غير الحكوميّة فلا تملك الحقّ في شنّ حرب تحت أيّ ذريعة كانت. وفي ظلّ هذه التعاليم، يمكننا أنْ نستنتج وَفقًا لقوانين الحرب المنصوص عليها في القرآن أنّ الحروب كلّها، باستثناء الحرب الدفاعيّة التي أصبحت لا مفرّ منها، غير مشروعة. ومثال ذلك: حرب العصابات، والحرب بالوكالة، والحـرب غير المعلنة، والحرب العدوانيّة، فكلّها غير مشروعة في الإسلام بلا ريب.

إنّ الحرب فعليًّا عمل وحشيّ، ولا يوجد مغزى إنسانـيّ بشأنها بتاتًا. وفي الواقع، وَوَفقًا لمبادىء محدّدة ومعروفة للإسلام، فإنّ السّلام هو القاعدة، أما الحرب فهي الاستثناء النادر.

إنّ السّلام شيء يمكن أنْ نختاره في الظـروف جميعها، في حين لا نتّخذ قرار شنّ الحرب إلا في أوقات الطوارئ لأغراض الدفاع، وعندما يصبح لا مفرّ منه، وحين تكون الإستراتيجيّات السلميّة لتجنّب المواجهة جميعها قد باءت بالفشل.

إقناع سلميّ لا إكراه

في موضوع الجهاد، يخاطب القرآن المؤمنين بما يأتي:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ الفرقان: 52.

كما نعلم، فإنّ القرآن الكريم كتاب فكريّ، فهو ليس بندقية ولا سيفًا. ولذلك، فإنّ (الجهاد) بمفهوم القرآن يعني فقط نقل الأفكار من القرآن الكريم إلى الناس. وهذا يعني أنّ علينا أنْ نناضل بسلام لجعل أفكار القرآن الكريم مفهومة من خلال تقديمها على شكل حجج منطقيّة.

إنّ الآية المذكورة أعلاهُ أوضحت أنّ ما يسمّى الجهاد في الإسلام يستلزم فقط نوع النضال السلميّ الذي لا علاقة له بالعنف. الكلمة العربيّة (الجهاد) مشتقة من الجذر (جهد) الذي يعني السعي، والنضال من أجل هدف أو غاية، وبذل النفس إلى أقصى درجة ممكنة لتحقيق هدف المرء. وهذا هو المعنى الأصليّ لـ (الجهاد) في العربيّة.

إنّ هذه الآية تظهر أنّ الجهود السلميّة تتفوّق على جهود العنف كثيرًا. وكلما لجأ الإنسان إلى أسلوب العنف، فإنّ نطاق جهوده يصبح محدودًا جدًّا. وفي اللجوء إلى العنف، ليس أمامنا إلا السيف والبندقيّة، في حين نستخدم أنواع الأشياء المتوافرة جميعها لتحقيق هدفنا بالطرائق السلميّة. وحتى القلم في الغرفة المغلقة يمكن أنْ يخدم غرضًا كبيرًا.

الالتزام بالحقيقة معَ الصّبر والمثابرة

يخبرنا القرآن أنّ الذين يمكنهم تجنيب أنفسهم الخسارة، وتحقيق الحياة الناجحة، هم:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ العصر: 3.

ومن المؤسف أنّ من يلتزم مسار الحقيقة بنفسه، أو يدعو الناس إلى قبولها يُرفض من الآخرين على الدوام. فالمقاومة التي عليه أنْ يواجهها كبيرة جدًّا. وما على محبّ الحقيقة فعله هنا هو ممارسة الصبر الذي لا حدود له، وعليه أنْ يتحمّل بكلّ ثبات المشاقّ جميعَها من غير أنْ يحاول تحميل مسؤوليّتها لغيره.

إنّ الصبر اسمٌ آخرُ للسلوك اللاعدوانيّ، ويعني أنّه ينبغي للذي يدافع عن الحقيقة عدم مواجهة العنف بمثله، ما يتطلب التزامه بالسُّبل السلميّة التزامًا أحاديّ الجانب.

فمن يتبنّى طريق الحقيقة، لابدّ له من هجر العنف، فهما لا يجتمعان معًا. ومن يريد اختيار الحقيقة لابدّ له من التخلّي عن العنف؛ فالعنف، أيًّا كانت أسبابه أو مسوِّغاته أو ذرائعه، يظلّ عنفًا. وأشكال العنف جميعها خبيثة بلا فرق، ولا يوجد أيّ مبرّر كان يمكنه أنْ يلغي عواقب العنف المدمّرة أو يحدّ منها. ومن مساوئ العنف أنه يستثير السلوك الذي يسعى إلى محاربته ويعزّزه؛ فبدلًا من تقليص الشرّ فإنّ العنف يعمل على تكاثره.

ويبقـى ارتكاب العنـف باسم الحقيقـة نفيًا للحقيقـة، أمّـا أولئك الذين يمارسون العنف باسم الحقيقة فهم يثبتون فقط أنّ قضيّتهم بعيدة كلّ البعد عن الحقيقة، ومحـبّ الحقيقة لا يكون أبدًا محبًّـا للعنف، ومن يحبّ العنف بالتأكيد ليس محبًّا للحقيقة، حتى لو كان يَعُدّ نفسه بطلًا للحقيقة.

اعتماد نهج المصالحة

لقد سادت حالة الحرب بين قريش والمسلميـن حين كان الرسول محمد ﷺ يدعو للإسلام؛ نتيجة لعدوان قريش على خصومها. وفي هذا السياق، فإنّ الأوامر التي وردت في القرآن الكريم بهذه المناسبة هي:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال: 61-62.

تدلّ هذه الآية من القرآن الكريم على أنّ السّلام مرغوب فيه في الإسلام إلى أقصى حـدّ ممكن، حتى لو لم يكـن إحلال السّلام إلا مـن خلال تكبّد الأخطار، فإنّه ينبغي أنّ تكون هذه طبيعة الحال من غير تردّد، كما شرع في القرآن الكريم.

وإذا قُدِّم أيّ عرض للصلح من الخصوم في أثناء الحرب، فيجب قبولها من غير أيّ تأخير، حتى لو افترضنا أنّ هناك خوفًا من بعض الخداع في عرض السّلام، فإنّنا يجب أنّ نقبل العرض على أمل أنّ الله سوف يكون دائمًا إلى جانب محبّي السّلام لا المضلّلين.

وحقيقة أخرى تظهر هنا، في هذا العالم، وهي أنّه لا يمكن إحلال السّلام

إلا من خلال أولئـك الذين يملكون قـدرًا كبيرًا من الشجاعـة، وفي العالم الحاليّ فـإنّ مشكلات تنشأ حتمًـا بين جماعات مختلفة؛ لعـدم وجود حالة إنسانية مثاليّـة على الإطلاق. فالجميع في مرحلة مـا في حياتهم يواجهون بعض الظلم وسلب ما ينتمي إليهم من غير وجه حقّ. في هذه الحالات، يمكن لمثل هؤلاء الأفراد فقط إحـلال السّلام بارتفاعهم فـوق الاعتبارات كلها، وازدراء الذرائع جميعها للدخول في انتقام عنيف. والحقيقة هي أنّ الشجاع، والشجاع جدًّا هو فقط من يستطيع إحلال السّـلام في هذا العالم. وأولئك الذين يعانون نقصًا في الشجاعة سيواصلون الصراع، ومن ثَمّ لن يسمحوا بإعادة كتاب تاريخ العالم وَفقًا لشروط السّلام المباركة.

لا فساد على هذه الأرض

يشير القرآن فـي الآية الآتية إلى نـوع معيّن من الشخصيّـة، التي أسمت نفسها بالمصلح:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ البقرة: 11.

ويشير هذا إلى أولئك الذين يدّعون أنّهم يمضـون في العمل الإصلاحيّ، ولكـنّ بأسلوب غير صحيـح، كون نتيجـة أفعالهم هي الفسـاد والانحراف. و(الفساد) هنا يعني أنّ أعمالهم تقود إلى الاشتباك معَ الآخرين ومواجهتهم، ممّا يوجِد جوًّا من الكراهية المتبادلة، وتتقوّض الأخلاقيّات خلال هذه العمليّة ويسود التفكير السلبيّ، ويشار إلى هذه العوامل كلها بأنها إشاعة الفساد في الأرض؛ لأنّها تدمّر السلم الاجتماعيّ كلّه. وفي نهاية المطاف، يكون أعضاء المجتمع على خلاف أبديّ معَ بعضهم.

إنّ هذا الدرس القرآنيّ يدل على أنّه لا يكفي للممارسة أنْ يكون لدى الإنسان هدف جيّد، ليكون على صواب، ويدلّ أيضًا على أنه يجب فحص الآثار الجانبيّة الناتجة التي قد تنشأ عن مثل هذا النوع من الإصلاح.

ولو أنّ هذه الأعمال نفسها أنتجت التوتّر والصراع - مع أنّ هدفها هو الإصلاح- فإنّه سيُنظر إلى أصحاب هذه الأعمال بأنهم ناشرون للفساد، وسوف يُدانون على أنّهم مجرمون لا صانعو سلام ومصلحون وخُدّام للإنسانيّة.

إن الإصلاح الحقيقي لا يكون حقًّا كذلك، إلا إذا انحصر في مجال السّلام والإنسانيّة. إضافة إلى أنّه أيّ عمل سيُدان حتى لو نُفِّذ باسم الإصلاح، على أنّه يخلّ بالأمن، أو الأسوأ من ذلك، يقود إلى خسائر في الأرواح أو تدمير للممتلكات. وينبغي لمَهمَّة الإصلاح أن تؤدّي إلى الإصلاح، أمّا إذا أدّت إلى الفساد فإنّ هذه الحركة الإصلاحيّة بحدّ ذاتها شكل من أشكال الانحراف الاجتماعيّ، مهما كانت الكلمات البراقة التي قد تستخدم في وصفها.

الرزق الأكبر

لقد أورد القرآن مبدأ الحياة الآتي:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ طه: 131.

هناك طريقتان مختلفتان جدًّا في الحقيقة ليحيا كلّ إنسان حياته الذاتية؛ أمّا الأولى؛ فهي موجّهة كليًّا نحو العالم الماديّ، فلن تجد حدًّا لطموحات الذين يسعون إلى النجاح انطلاقًا من الثروة والمكانة الدنيويين؛ لأنّه

ومادامت أهدافهم دنيويّة بحتة، فسيجدون أنّ كثيـرًا ممّن حولهم يمتلكون أكثر ممّا لديهم، ولا مفرّ من مثل هذه المفارقات. لذلك، فإنّ الإنسان الذي يعيش لأجل ماديّة الأشياء سيكتشف أنّه يعيش في حرمان دائم. وهنا، تنتج مشاعر السخط والغيـرة، التي تتراكم معَ الوقت على شـكل تنافس وانتقام وعنف مرافق لكلّ هذا.

أمّا الطريقة الثانية فيما يتعلق بالفرد؛ فهـي أنْ يعيش حياتـه معَ شعور الإنجاز، ومثل هذا الشخص سيكون راضيًا؛ فشعـوره بالإنجاز سيمنعه من تغذية الكراهية ضدّ الآخرين، أو الانخراط في أعمال العنف. ولكنْ من هم أولئك الذين مُنحوا بركات هذا الشعور؟ إنّهم بكلمات القرآن الكريم الذين يتلقون النعم من الله، فنعمـة الله تعني الاقتناع باكتشـاف الحقيقة؛ أي إنّ وجودهم الذي باركه الخالق هـو أثمن من كنوز العالم كلـه؛ ذهبه وفضّته. فعلى كلّ فرد أن يحيا حياته بوعي تامّ بأنّ مصدر تغذيته الفكريّة والروحانيّة هو الكون بأسره.

فالذي يصبح متلقّيًا لنعم الله في هـذا العالم يتسامى لدرجة أنّ الأشياء الماديّة مثل الثروة والسلطة تصبح عديمة الأهمية فـي نظره، وتحوّله هذه النفسيّة من تلقاء نفسها إلى شخص محبّ للسلام، فالكراهية والعنف يبدوان له بلا معنى، فليس لديه الوقت لمثل هذه العواطف السلبيّة أو التخطيط للقيام بأعمال عنف. وعليه، فإنّ الذي ينال العظيم يستحيل أنْ يسعى نحو الوضيع، ولن ينخرط بناءً على هذا في أعمال العنف.

إسكات التذمّر مباشرة

إنّ عقليّـة المتذمّر عدوانيّة؛ فهـي تخنق التفكير الإيجابـيّ، وينجم عنها التفكير السلبيّ الذي بلا شكّ هو السبب الرئيس وراء الشرور كلها في معظم الحالات؛ إذ يؤدّي إلى إحساس دائم بالظلم، سواء أحقيقيًّا كان أم وهميًّا، ما يجعله السبب وراء أيّ أعمال عنف تحدث.

لقد وُضعت سنّة الخلق في هذا العالم الحاضـر بطريقة لا مفرّ فيها من الاشتكاء والتظلّم. وبناءً علـى ذلك، فإنّه يجب رفض فكـرة حدوث التذمر مباشرة، بمجرّد أنْ تتّخذ شكلها في تفكيرنا. فالتذمّر إذا أشير إليه وأُحيِيَ باستمرار، فإنّه يصبح راسخًا في الذاكرة، بحيث لا يكون هناك مجال لتنحيته لاحقًا. وفي مثل هذا الموقف، فإنّه من الحكمة وأد التذمّر في مهده، وإذا تعذّر ذلك، فإنّ التذمّر سيصبح تدريجيًّا جزءًا دائمًا من شخصيّتك. وعليه، فإنّ تفكير المرء يكسبه طابعًا سلبيًّا، سوف يظهر الآخرون فيه مثل الأعداء. وإن سنحت له الفرصة، فإنّ المُتشكي لن يتردّد في ممارسة العنف ضدّ أهداف شكواه وتذمّره، حتى لو كان هو نفسه يعاني نتيجة لذلك.

ما الصيغـة لوضع حدّ للتذمّـر منذ البدايـة؟ إنّ ذلك يكـون بالتعمّق في التفكير في الآية الآتية من القرآن الكريم:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ الشورى: 30.

هذا يعني أنّه كلّما كان لدينا سبب للشكوى ضدّ أيّ شخص، يجب أنْ نوجّه اللوم لأنفسنا بداية؛ إذ ينبغي لنا حينئذٍ أنْ نحاول تفسير شكوانا بطريقة يقع

اللوم من خلالها علينا. فعندما نتوصّل إلى فهم أنّنا ارتكبنا خطأً ما، حينئذ علينا العمل على تصحيح أوجه القصور عندنا، بدلًا من إضاعة الوقت في الاحتجاجات والتذمّر ضدّ العدوّ المفترض.

رحمة للعالمين

لدى القرآن ما يقوله هنا لرسول الإسلام:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: 107.

لقد أدّى ظهور نبيّ الإسلام إلى جعل رحمة الله تبدو واضحة للبشريّة جمعاء؛ فمن خلاله أرسل الله هذه المبادئ التي إن اختارها الإنسان فإنه يعيش في دار السّلام والأمن الأبديّة، ومن خلاله كُشف عن مثل هذه التعاليم التي كان من شأنها أنْ تحوّل مجتمع الإنسان إلى مجتمع سلميّ. ولأوّل مرّة في التاريخ، قدّم نبيّ الإسلام عقيدة كاملة تقوم على مفهوم السّلام.

لقد قدّم لنا صيغة لبناء حياة صحيّة عن طريق نبذ الكراهية والعنف، ومن خلاله دبّ الحراك في ثورة جعلت من الممكن بناء مجتمع سلميّ من خلال تجنّب الحرب والمواجهة. وعلى الرغم من أنّ نبيّ الإسلام كان قد اضطرّ إلى شنّ غزوات قليلة، فإنّها كانت قصيرة، حتى إنّنا نستطيع وصفها بالمناوشات بدلًا من الحرب الشاملة. سيكون من الصحيح تمامًا أنْ نقول: إنّ نبيّ الإسلام ابتدأ ثورة، على الرّغم من عظم شأنها ونطاقها وتداعياتها، لكنها كانت غير دمويّة تقريبًا. ولقد أعطى السّلام سمة العقيدة أو نظام الحياة، وجعل من الواضح لأتباعه أنّ العنف وسيلة للتدمير، أما السّلام فهو

السبيل للبناء والتشييد. لقد عَدّ الصّبر أعظم شكل من أشكال العبادة، كما عَدّ الفساد الجريمة الأكبر كونه يزع يقلق نظام الطبيعة الآمن.

أضف إلى هذا أنّ النبيّ أمر المؤمنين أن يُحيّوا بعضهم بعضًا بعبارة (السّلام عليكم)، وفي هذا دَلالة على أنّ العلاقاتِ المتبادلةَ ينبغي أنْ تبنى على السّلام والأمن. لقد أخبر النبيّ المؤمنين بأنّ الفوز بالآخرة يجب أنْ يكون هدفًا لنضال الإنسان، وبهذه الطريقة تتبدّد الفكرة القائلة: إنّ التقدّم الدنيويّ يجب أنْ يكون هدف الإنسان في الحياة؛ لأنّ هذا هو ما يؤدّي في نهاية المطاف إلى أنواع المواجهة والعنف جميعها. وكانت صيغته لعيش أفضل تتمثّل في جعل الشخص نفسه مفيدًا للآخرين، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فعلى الأقلّ عدم الإساءة إليهم، وعدم عَدّ أيّ شخص عدوًّا، فحتى العدوّ لابدّ له من أنْ يحظى بمعاملة عادلة؛ لأنّه حينئذ فقط يدرك المرء أنّ العدوّ كان صديقًا محتملًا: (العدو) دائمًا في داخله قابليّة أنْ يكون صديقًا.

السّلام في الظروف كافة

لقد كان رسول الإسلام من محبّي السّلام لأقصى الحدود، ولطالما حاول خصومه أنْ يستدرجوه إلى الحرب مرارًا وتكرارًا، لكنه كان يتجنّب التورّط في كلّ مرّة. ومعَ ذلك، وفي بعض الأحيان نظرًا إلى العدوان من جانب واحد، لم يكن أمامه من خيار سوى القتال دفاعًا عن النفس، ولمدّة محدودة.

(بَدْرٌ) كانت معركة من هذا القبيل.

ويظهر التاريخ أنّه عندما كان الجيشان من كلا الجانبين مستعدّين للمعركة، هبط جبريل – ملاك الله – على النبيّ ﷺ وقال له:

«السّلام يقرئك السّلام، ويخصّك بالتحية والإكرام».

وعند سماع هذا، أجاب نبيّ الإسلام: «الله هو السّلام، السّلام هو منه وإليه هو السّلام».

وهذا الموقف يدلّ على أنّ نبيّ الإسلام حتى في هذه المرحلة، كان محبًّا للسلام. حتى في أوج تلك المرحلة، فإنّ عقله كان خاليًا من مشاعر الكراهية والعنف، بل كان يفكر من منطلق السّلام والأمن، وكان قلبه ينبض بالرّغبة في نشر هذه الظروف في العالم بعون من الله تعالى. فالرّجل الحقّ هو الرجل الذي يستطيع أنّ يفكر في السّلام حتى في أوقات الحرب، والذي يمتلئ قلبه بمشاعر السّلام والأماني الطيبة، حتى خلال الطوارئ على ساحة المعركة.

وهذا ليس بالأمر العاديّ المألوف؛ ففي عالم الواقع يعدّ هذا المثال الأعلى للتفكير الإيجابيّ. وكما نعلم جميعًا، فإنّ الحرب هي الأكثر سلبيّة في الأحداث جميعها؛ فالنبيّ الذي كان يدير المعركة، وعلى وشك البدء بالحرب، نطقت شفتاه كلمات السّلم والأمن بدلًا من الحرب والعنف. وهذا مؤشّر على فضيلة الإنسان الأعلى؛ فالأنبل شخصيّة بين الناس هو الذي يفكّر في السّلام وسط العنف، ويخطّط للمصالحة حتى في زمن الحرب.

مواطنون مسالمون

وَفقًا لحديث نبوي شريف، يُعرّف نبيّ الإسلام المؤمن على النحو الآتي:

«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ».
(الترمذيَ، والنسائيَ، وابن ماجة، ومسند الإمَام أحمد)

هناك طريقتان ليحيا الإنسان حياته في المجتمع؛ الأولى أنّ يعيش بسلام بين من حوله، والأخرى الاستمرار في العداء معَ الآخرين. وَوَفقًا لهذا الحديث، فإنّ الطريق إلى المؤمنين والإيمان تكون بالعيش السلميّ بوصفنا مواطنين في المجتمع؛ فلا ينبغي لأحد أنّ يشكّل أيّ خطر على ممتلكات الآخرين، أو حياتهم، أو أعراضهم، فلاينبغي للمرء أن يتّخذ طريق العنف تحت أيّ ظرف من الظروف.

كيف ينبغي أنّ نعيش الحياة بحيث يبقى أعضاء المجتمع سليمين آمنين من ظلم الآخرين؟

علينا المحافظة على الاعتدال، بغضّ النظر عن وجود أسباب للتذمّر، وينبغي أنّ يكونوا قادرين على دفن تذمّرهم في قلوبهم الذاتية، بدلًا من صبّه على آخرين. إنّ المجتمعَ الذي يسوده مثل ضبط النفس هذا مجتمعٌ يتمتّع أفراده بالشعور بالأمان. وفي الواقع، فإنّ المجتمع السلميّ هو الإطار المثاليّ لتحقيق التنمية البشريّة الإيجابيّة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ المجتمع الذي يحفّه العنف هو مجتمع حيوانيّ وليس مجتمعًا بشريًّا.

إنّ محبّة السّلام فضيلة إنسانيّة نبيلة، في حين ينحطّ حبّ العنف بالإنسان وباستمرار من الأخلاقيّة العالية إلى مستوى الحماقة المتدنيّة.

لا مواجهة معَ العدوّ

يقول نبيّ الإسلام:

«أيها الناس، لا تمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية».

وهذا يعني أنّه إذا أصبح شخص ما عدوّنا، فلا ينبغي أنْ نتحوّل بالضرورة ضدّه ونبدأ القتال معه. فرغم عدائيّته، ينبغي لنا أنْ نختار تجنّب الاحتكاك معَه؛ لمنع الصراع معه.

(اسألوا الله العافية)، معناها أنْ نختار طريق السّلام بدلًا من المواجهة، فنحصل على عـون الله للمضي فيه. ولاينبغـي للمؤمن ألّا يدعـو الله بمثل الدعاء الآتي: (يا الله، دمّر العـدوّ)، بل ينبغي أنْ يكون دعـاؤه كالآتي: (يا ربّ، ساعدني على البقاء بعيدًا عن طريق العنف والمواجهة، على الرغم من عدائيّة الآخرين، وساعدني على مواصلة رحلة حياتي على طريق السّلام).

وهذا يدلّ على أنّـه وَفقًا لسنّة الطبيعـة، فإنّ السّلام في هـذا العالم هو القاعدة العامّة، في حيـن أنّ العنف ضرورة مؤقتة. إضافـة إلى ذلك، فإنّ هذا يخبرنا بأنّه إذا كان عدوُنا فردًا أو جماعة، فإنّ طريقة المواجهة ليست الطريقة الوحيدة لحلّ مشكلة. والطريقة الأفضل والأكثر ملاءمة هي تحييد العداء من خلال استراتيجيّة سلميّة. إنّ قوّة السّلام أكثر فاعلية وأكثر فائدة بكثير من قوّة العنف.

الأسلوب السلميّ هو الأفضل

إنّنا نتعلم من الأثر كيف كانت سياسة النبيّ في المسائل العامّة:

«وما خُيِّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرَهما ما لم يكن إثمًا». (البخاري)

إذا نظرنا إلى مبدأ اختيـار الأسهل في سياق العنف فـي مقابل الطريقة السلميّة، فسيكون من الصحيح القول: إنّ طريقة النبيّ في أيّ موقف كانت بالامتناع بمثابرة عن استخـدام الأساليب العنيفة في التعامـل معَ المسألة

المطروحة. ولهذا، فإنّ المسار السلميّ يجب أنْ يُسلك دائمًا؛ لأنه ما لا شكّ فيه أنّ أسلوب العنف يقع ضمن فئة الخيار الأصعب، في حين أنّ العكس هو الصحيح فيما يخص إلى الطريقة السلميّة.

ومعَ ذلك، فالمسألة ليست مسألة خيارات أسهل أو أصعب، بل تعني إنّه وبتأمّلنا العام، فإنّ الأسلوب السلميّ يكون موجّهًا دائمًا من أجل تحقيق نتائجَ إيجابيّة، في حين أنّ أسلوب العنف ليس إلا تمرينًا في العبثية. فالأسلوب العنيف لا يفشل في حلّ المشكلة فحسب، بل يزيد من تفاقمها وتعقيدها أيضًا. وفي الحديث، فإنّ الطريق الصعبة تعني اتّباع المسار المليء بالعقبات.

وعلى العكس من ذلك، فالطريق الأسهل يعني التصرّف بطريقة تُسهّل تحقيق هدفنا.

حدود الاختلاف

يقول نبيّ الإسلام ما يأتي:

(أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر). ومن ناحية أخرى، فقد ورد حديث آخرُ للنبيّ ﷺ: «من كره من أميره شيئًا فليصبر عليه». وبالمثل، في مناسبة آخرى، يقول النبيّ ﷺ: «**تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك**».

يبدو أنّ هناك نوعين من الوصايا في هذه الأحاديث: فمن ناحية، فقد أمرنا أنْ نقول للحاكم بوضوح ما إذا كان يسير في الطريق غير الصحيح أم لا، في حين أنّ الحديث الآخرَ يفرض علينا البقاء صابرين من جهتنا، وأنْ نتحمّل كلّ ظلم من الحاكم.

إنّ هذه التعاليم على قدر كبير من الأهميّة، وهي تميّز بين إيصال المشورة اللفظيّة، واتخاذ خطوة عمليّة. ومن المرغوب فيه بالتأكيد أنّه إذا رأى شخص مُوالٍ حاكمَهُ قد سلك الطريق الخطأ، فإنّ عليه أنْ يلفت انتباهه إلى هذا بأسلوب ليّن فيه النصح، ولكن بقدر الاهتمام باتخاذ الخطوات العمليّة، فإنّه لابدّ له من الامتناع كليًّا عن القيام بذلك، وعليه أنْ يفرّق بين النصح الصادق وسياسات المواجهة، وأنّ عليه الإفادة من حقّه الشرعيّ بأنْ ينطق كلمات المشورة الصالحة، وأنْ يمتنع عن المواجهة السياسيّة العنيفة.

إنّ هذا المبدأ الأساسيّ مهمّ جدًّا، فجوّ العنف ينشأ في المجتمع عندما يطلق أعضاؤه حركات المواجهة ضدّ حكامهم؛ وذلك بهدف الإطاحة بهم تحت اسم الإصلاح السياسيّ. ولكن من ناحية أخرى، إذا قصروا أنفسهم عن النصيحة اللفظيّة وامتنعوا عن السياسة المثيرة للجدل فسيبقى المجتمع مسالمًا دائمًا، ولن يصبح أبدًا غابة من العنف.

فضيلة المرونة

كما ورد في الحديث، يقول نبيّ الإسلام: (كمثل خامة الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت كفأتها بالبلاء...)، وعلى هذا، فإنّ هناك طريقتين للتصرّف في أثناء وجود عاصفة: الطريقة الأولى بمواجهتها بكلّ صلابة، أمّا الطريقة الأخرى فهي أنْ تكون مرنًا وأنْ تنحني في مواجهتها. وهنا يمكننا أنْ نضع الأمر بطريقة مختلفة، فنقول: هناك طريقتان لمواجهة الشدائد: واحدة بالطرائق السلميّة، والأخرى من خلال العُنف. إن الله سبحانه يأمر بالتخلّي عن أسلوب العنف في صالح الطريقة السلميّة.

إنّ العنف ذو علاقة بحبّ الذات في الأساس، وهذه الأنا حينما تُستفزّ تظهر تقريبًا أنواع العنف والقلاقل جميعها؛ فعندما تتأثّر الأنا لإنسان ما، فإنّها تتحوّل إلى الأنا العظمى، والنتيجة تكون الانهيار. ومن المُسلمات أنّ أولئك الذين يعانون الأنانيّةَ اختاروا ألا يكونوا مرنين في مواجهة عواصف الحياة. وعلى العكس، فإنّ المتواضع هو من يخطو على طريق السّلام في مواجهة الشدائد. وفي عالم الله هذا فإنّ الدمار مصير أولئك الذين ينغمسون في الأنانيّة، في حين ينتظر النجاحُ أولئك الذين يديرون أنفسهم بتواضع جَمٍّ. وهناك حديث آخرُ يؤكّد هذه النقطة نفسها:

«من تواضع لله رفعه».

لذلك، فإنّ سرّ التعايش السلميّ هو بالمثابرة على تجنّب صدام الأنا الموجودة في الأفراد أو الجماعات. وهذه هي الصيغة الوحيدة لإقامة مجتمع سلميّ على أساس دائم.

إثبات بدهيّ

عُقدت في السادس من شباط عام 1998م ندوة دامت ثلاثة أيام في واشنطن تحت رعاية الجامعة الأمريكيّة، ألقى فيها الكاتب خطابًا عن مفهوم السّلام في الإسلام، أعيدت صياغة جزء منه فيما يتبع من هذا الكتاب.

ولا مبالغة في القول: إنّ الإسلام والعنف متناقضان بعضها مع بعض. إنّ مفهوم الإرهاب الإسلاميّ لا أساس له من الصحّة.

وحقيقة أنّ العنف غير مستدام في العالم الحاليّ تكفي لتبيّن أنّ العنف من حيثُ المبدأ غريبٌ عن خطط معالجة الأشياء في الإسلام. يدّعي الإسلام

أنّه خاتم الأديان، وعلى هذا النحو، فإنّه لا يمكـن أنّ يضع في مخططه أيّ مبدأ قد لا يكون مناسبًا في وقت قادم من الزمن. إنّ أيّ محاولة للعنف في الإسلام من شأنها إلقاء الشكّ على ديمومة الديانة الإسلاميّة.

إنّ عبارة مثل (العنـف الإسلاميّ) تحمل النوع نفسه مـن التناقض، كما في قولنا (الإرهاب السلمـيّ). والحقيقة هي أنّ تعاليـم الإسلام كلها تقوم بصورة مباشرة أو غير مباشرة على مبـدأ السّلام. ففي حين يمكن تحقيق الأهداف الإسلاميـة جميعها في جوّ سلميّ، فإنّه لا توجـد أهداف إسلاميّة يمكن تحقيقها في جوّ من العنف.



الفصل التاسع: رحلة نحو السّلام

لقد تعاملت معَ قضيـة السّلام بصورة مباشرة أو غيـر مباشرة منذ عام 1950م. وفي هذا الصدد، وعلـى الرغم من ضغوطـات الأنشطة المختلفة الأخرى فقد شاركت في عدد من مؤتمـرات السّلام، في الهند، وكذلك في الخارج، ولقد نُشِرَ عدد كبير مـن كتاباتي عن هذا الموضـوع. وهنا أودّ أنْ أشير إلى ثلاثة مؤتمرات دوليّة للسلام عُقدت مؤخرًا بشأن مسألة السّلام، التي حضرْتُهـا وحاولتُ من خلالها تقديـم مساهمتي. المؤتمـرات الثلاثة جميعها عُقدت برعاية منتدى نـزع السلاح النوويّ، برئاسـة السيّد أندريه بايكوف، شارك فيها عدد من ذوي التعليم والثقافة العالية من مختلف أنحاء العالم.

وقد عُقد المؤتمر الأول في هذا الصدد من الخامس والعشرين إلى الثلاثين من تمّوز عام 2001م، في كاندرستيج، وهو منتجع مشهور في سويسرا، وكان موضوعه: (كيف نبني عالمًا خاليًّا من الأسلحة النوويّة؟)، وقد قدّمت ورقة في هذه المناسبة أعيدت صياغتها أدناهُ.

«أيها السيّدات والسادة:

إنّ موضوع هذا الاجتماع هو المسألة المعقدة لنزع السلاح النوويّ، الذي كان من المناسب والضروري في هذه المرحلة من تطوّر العالم أنْ نناقشه في محافل من مثل هذا النوع. إنّني شاكر لذلك، ولمنظمي هذا المؤتمر، لإتاحة الفرصة لي لمشاركة وجهات النظر معكم.

إن ما يهمني في المقام الأول هو الفهم الكامـل لأسباب تكديس التسليح النــوويّ. فالسبب الرئيس في رأيــي هو عدم الثقة بيــن الناس، وكذلك بين الأمم، وقد تسبب انتشار التسلح النوويّ في تصعيد هذه الريبة، وزيادة في الأعمال الأخرى ذات الصلة. والشيء الذي عُدّ بأنّه سيكون مسؤولاً على نحو أساسيّ عن انعدام الثقة هذه هو عدم وجود الروحانيّة في العصر الحديث، لذا فإنّ علينا أنْ نعمل على إزالة هذا الأسباب السبب الجوهري، وإلا سيكون من المستحيل تقريبًا إحراز أيّ تقدّم.

هناك مقولة معروفة ليسوع المسيح؛ إذ قال: (أحببْ عدوك)، وهذا يعني أنّ على المرء أنْ يحــبّ الجميع؛ وفيهم أعداؤه. وهذا هــو جوهر الروحانيّة والدين: الحــبّ والتعاطف معَ مــن حولــك. وإذا كُنّا جادّين فــي رغبتنا في إزالة المشــكلات التي تواجه البشريّــة جميعها أو حلّهــا، ولا سيّما المسائل المتعلقة بالتسلّح النوويّ وأعمال العنف، فإنّه يجب علينا أنْ نؤكّد أكثر الأمور الرّوحانيّة، وإحياء الروح الحقيقيّة للتديُّن.

وأودّ أن أذكــر مثالاً مــن الأثــر الإسلاميّ؛ فنحــن نعلم أنّ نبــيّ الإسلام ولد في مكّــة المكرمة، وهاجر فــي وقت لاحق إلــى المدينة المنــوّرة، وفي تلك الأيام، كان هنــاك بعض اليهود الذيــن يعيشون في المدينــة المنوّرة، وذات يوم، عندما كان النبيّ جالسًا معَ رفاقه في الخارج، مرّتْ بهم جنازةٌ فقام: «فَقِيلَ لَهُ يــا رسول الله: إِنَّهَــا جِنَازَةُ يَهُــودِيٍّ، فَقَالَ: أَلَيْسَــتْ نَفْسًــا؟» (البخاريّ)

جاء هــذا مباشرة من قلب رجل روحانيّ حقًّــا، رجل متديّــن حقًّا يشعر بالرّحمة دائمًا معَ الرجال والنساء جميعهم، ويحبّ الجميع بالتساوي. ولكن

عندما نعاني نقصَ الروحانيّة والقيم الدينيّة، فإنّنا نميل إلى أنْ نصبح أكثر خوفًا وأقلّ ثقة بمن حولنا.

إنّنا في هذا العالم الحديث شهود على مشهد يستغلّ الناس فيه بعضُهم؛ فلقد أصبح من الأسهل استغلال الآخرين على حبّهم. وأعتقد أنّ هذا يفسِّر سبب مشكلاتنا الحالية على نحوٍ ما.

وأهمّ شيء نقوم به أوّلًا قبل كلّ شيء هو أنْ نؤصّل في أنفسنا وفي الآخرين روحانيّة حقيقيّــة. وهذه هي السبيل الوحيدة لإنشاء نظــام عالميّ قائم على المودّة والرّحمة، الأمر الذي يؤدّي بدوره إلى إنشاء استقرار دوليّ. ومن غير مثل هذه التدابير الإيجابيّة سيكون من المستحيل حلّ مشكلات اليوم، وشكرًا».

وبمناسبة انعقاد المؤتمر الدوليّ في كاندرستيـج (سويسرا)، وبناءً على طلب من السيّد أندريـه بايكوف، رئيـس مجلس إدارة منتـدى نزع السلاح النوويّ، أعددت وثيقة بشأن هذه المسألة. وقد قدّمت هذه الوثيقة في نهاية المؤتمر فــي الثلاثين من يوليو عــام 2001م، في حفل أقيم فــي مدينة زوغ التاريخيّة (سويســرا)، ونُشرت لاحقًا للتوزيع العام، وقــد أُعيدت صياغتها على النحو الآتي:

«إنّ السّلام أمــر ضروريّ للحصــول على أفضل طريقــة للمعيشة، سلام العقل، والسّلام في الأسرة، والسّلام في الطبيعة. واليوم، في عالمنا التقني الحديث، يبــدو أنّ الإنسان ظاهريًا أصبحت لديه القــدرة على الوصول إلى كلّ شيء يرغب فيه، ولكن في غياب السّلام، فقــد غدا كلّ شيء بلا معنى. والمطلوب لمعالجة التوازن ثانية هو الحــبّ، والرّحمة، والتسامح، والصبر، وروح التعايش. إنّ التعايش السلميّ هو السبيل الوحيد للوجود في هذا العالم.

كيف يمكن أنْ نحقق السّلام؟ إنّ الصيغة بسيطة جدًّا؛ خذ مالك من غير أنْ تغتصب ما للآخرين، ولبِّ حاجاتك الذاتية من غير حرمان الآخرين تلبية حاجاتهم، ثمّ لبِّ رغباتك من غير إحباط الآخرين، وحقّق طموحاتك من غير تجاهل الآخرين. وباختصار، حلّ مشكلاتِك من دون افتعال مشكلات للآخرين من حولك.

ومعَ ذلك، لا يمكن تحقيق حياة سلميّة إلا عندما يدرك البشر ما يجب أنْ تكون عليه حدودهم. فوَفقًا للقانون الإلهيّ، يمكنك أنْ تأخذ من هذا العالم كلّ ما ترضي به حاجتك، لا جشعك.

يمكنك القيام بأعمال تجاريّة معَ غيرك، ولكن ليس على حساب الأسرة والمجتمع. ففي وجودك اليوميّ، قد تعيش حياتك من خلال المحافظة على البنية الاجتماعيّة والتقاليد وليس بالقضاء عليها. فلديك الحريّة لإدارة حياتك الشخصية، ولكن مع تقديم الرعاية لبقيّة المجتمع وليس من خلال تجاهلهم. ويمكن استخدام الموارد لمصلحة الإنسانيّة، ولكن ليس لأغراض استغلاليّة بحتة. إنّك حرّ في استخدام وسائل سلميّة، ولكنك لست مخوّلًا لاستخدام الأساليب العنيفة. تستطيع استغلال الطبيعة، ولكن من خلال المحافظة على توازنها؛ إذ لا يجب الإخلال أبدًا بنظام التوازن فيها. إنّ لديك الحريّة لتستخدم الطاقة النوويّة للأغراض السلميّة، ولكن ليس لتصنيع الأسلحة المدمّرة، ولك مُطلق الحريّة أيضًا لتغذية مشاعر المودّة والرحمة، ولكن ليس لتفسح المجال للكراهية والتحيّز. إنك حرّ في تلبية رغباتك البدنيّة، ولكن ليس بقتل النفس روحانيًّا. وباختصار، لديك حرّية الاستمتاع بالحياة من خلال التقاسم معَ الآخرين، ولكن بالتأكيد ليس بالقضاء عليهم.

وفي العالم الحاليّ، فإنّ السبب الجذريّ لمعظم المشكلات يمكن أنْ يعزى إلى انحرافنا عن النموذج الذي استنتجته الطبيعة، التي هي من حولنا أفضل نموذج نقتدي به، والمعضلات جميعها التي نواجهها هذه الأيام تنشأ بسبب تجاهلنا هذا النموذج.

فالنجوم والكواكب في حركة مستمرّة فـي مداراتها، لكنّها لا تتصادم معَ بعضها. وهذا مثـال لإظهار كيف أنّ الإنسان قد يمضـي في الحياة من غير صراع معَ الآخرين؛ إذ يجب عليـه أنْ يواصل رحلته إلى الأمام نحو مقصده من غير إزعاج طريق الآخرين. والشمس نموذج رائع يظهر لنا كيف يمكننا أنْ نعطي الحياة للآخرين تمامًا من غير أيّ تمييز بينهم. الشجرة هي أيضًا مثال ساطع للإنسان، فهي تزوّدنا بالأكسجين الصحيّ والمفيد مقابل حصولها على ثاني أكسيد الكربون الضارّ. وانظر كيف تنشر الأزهار عبقها في كلّ مكان من غير انتظار المقابل على فعل ذلك. والنبع المتدفق هو أيضًا مثال نموذجيّ؛ إنه يروي الحقول مـن غير توقّع أيّ شيء في المقابـل. فمن غير غرس قيم الإيثار هذه بين بني البشر، لا تمكين أن توجد حياة وذات معنى على الأرض.

وباختصار، فـإنّ الإيجابيّة تسود في أنحاء الطبيعـة جميعها، والسلبيّة لا وجود لها في العالم الطبيعيّ. وهذا يعلّمنا درسًا، هو أنّ استجابتنا يجب أنْ تظلّ إيجابيّة في الأوقات جميعها، حتى في الحالات السلبيّة.

والموعظةُ الآتية في أنْ نحـذو حذو الطبيعة هي بالضبـط ما أعرب عنه السيّد المسيح في هذه الكلمات الإلهيّة:

«أبانا الذي في السموات ليتقدّسَ اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكنْ مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض». (متى، 6:10)

أمّا المؤتمر الثاني للسلام، فكان تحت رعاية منتدى نزع السلاح النوويّ، الذي عُقِد في فندق أشداون بارك، لندن، 18-21 سبتمبر 2001م. وبوصفي مدعوًّا لهذا المؤتمر، الذي حضره مندوبون من مختلف أنحاء العالم، ألقيت خطابًا خلال المداولات. ويرد نصّ هذا الخطاب أدناهُ.

خطاب في مؤتمر لندن

إنّني شاكر لمنظمي هذا المؤتمر لإتاحة الفرصة لي لحضور هذا الاجتماع الدوليّ. لعلّي أتمكّن من مشاركة وجهات نظري معَ هذا الجمهور المثقّف. لقد بدأنا رحلتنا للسلام من سويسرا؛ حيث نجحنا في تعرّف المشكلات الأساسيّة التي يواجهها العالم هذه الأيام.

إنّ الإعلان المشترك الذي صدر في مدينة زوغ السويسرية قد دعا إلى بناء عالم أفضل، يستند إلى أساس القيم الأخلاقية والروحانيّة. ولكي يصبح هذا واقعًا؛ علينا أنْ ننشئ السّلام أوّلًا؛ لأنّه من غير السّلام لا يمكن لعمل بَنّاء أنْ يتمّ على نحو فاعل. ولقد أُكّد أنّ بداية عمليّة السّلام تستلزم بالضرورة القضاء على الأسلحة النوويّة، ومن غير هذا لا يمكن إحراز أيّ تقدّم.

وكان التشديد على أهميّة فكر اجتثاث العنف جانبًا واحدًا من المداولات التي جرت في سويسرا. إنّ العنف يبدأ دائمًا في العقل، لذلك علينا اقتلاعه من العقل نفسه، وعلينا أنْ نجد عقيدة للسلام نواجه بها عقيدة العنف. وخلافًا لهذا، لن تكون هناك نهاية للعنف. إنّ الأحداثَ المروعة التي حصلت في نيويورك وواشنطن في اليوم الحادي عشر من سبتمبر، عام 2001م، دليلٌ كافٍ على هذا القول.

لقد ظهر على نحو فاعل أنّه معَ نزعة العنف في العقل، يستطيع الإنسان شنّ حرب من غير أنْ يكون في حيازته أيّ أسلحة، فهو يستطيع التفجير من غير قنبلة. لذلك، علينا القضاء على عقليّة العنف وغرس وسيلة سلميّة للتفكير بدلاً منها.

وفي ضوء هذا الواقع، وبروح من إعلان زوغ، فقد أعددت كرّاستين بعنوان: بيان رسميّ للسلام، والطريق إلى الجنّة . وهذه هي مساهمتي المتواضعة لهذه المَهَمَّة العالميّة. ويصف العمل الأول أهميّة السّلام الخارجيّ، في حين أنّ العمل الآخر يوضّح أهميّة السّلام الداخليّ، وكلاهما ضروريّ للحصول على التنمية المتوازنة السلسة.

والآن، أودّ أنْ أبدي بعض التعليقات المختصرة بشأن الفريق الحاليّ؛ فهذه المجموعة من الأطراف المعنيّة من الناس، التي نُظّمت تحت القيادة النشطة للسيد أندريه بايكوف، تبدو مجموعة قليلة في الوقت الحاضر، لكنّ كونها مجموعة صغيرة أو قليلة لا يعني أنّ هذه نقطة سلبيّة. فكما قال شوماخر، ولعله كان على حقّ: «الصغير جميل». ويقول لنا المؤرّخ البريطانيّ، أرنولد توينبي، وبعد دراسة طويلة مدى الحياة للتاريخ، إنّها كانت تلك الأقليّات التي أثبتت أنّ الأقليّة المبدعة هي التي صنعت الثورات الكبرى في التاريخ الإنسانيّ.

إنّني آمل بكلّ صدق أنْ يكون هذا الفريق بقدر اختبار الإبداع، وأنْ ينجح في إحداث ثورة انتظرها العالم منذ مدّة طويلة.

في الختام، أودّ أن أقول: إنّ صيغة الثورة في منتهى البساطة:

غيّر نفسَك، وسوف تكون هذه النفس قادرة علـى تغيير العالم بأسره. وفقكم الله لتحقيق هذا الهدف النبيل.

منتدى نزع السلاح النوويّ

أشداون بارك، لندن

14 سبتمبر 2001م

المؤتمر الدوليّ الثالث، تحت رعاية منتـدى نزع السلاح النوويّ، عقد في الثاني عشر من أكتوبر عام 2002م في المدينة التاريخيّة في زوغ، سويسرا. وهذا المؤتمر الذي شاركت فيه، حضره أيضًا علماء من مختلف أنحاء العالم. وقد أعددت ورقة لتقديمها في هذه المناسبة، معربًـا عن آرائي فيما يتعلق بالسّلام العالميّ. وأعيدت كتابتها في الصفحات الآتية.

بداية عهد جديد

منتدى نزع السلاح النوويّ، سويسرا، 12 أكتوبر، 2002م

قال أحد المؤرخين، كان على حقّ: إنّ تاريخ الجنس البشريّ ليس إلا سجلًّا للحروب والعنف. فبعد الحرب العالميّة الثانية، وصل هذا الوضع ذروته، أمّا الآن فقد شهد العالم ظهور قوّتين عظميين، وكلتاهما مسلّحتان بالآلاف والآلاف من القنابل النوويّة. ولكن سُرعان ما اكتُشِف أنّ الأسلحة النوويّة كانت عديمة الجدوى من الناحية العمليّة؛ فالقنابل النوويّة ليست مفيدة لا للهجوم ولا للدفاع؛ فمع أنها تستخدم في إبادة الأعداء، إلا أنها أيضًا طريق انتحار للمهاجم. وبعد أنْ اتّضح هذا الواقع للقوى العظمى، أصبحت هذه القنابل النوويّة عائقًا بدلًا من كونها داعمًا.

وقد أدّى هذا الإدراك إلى مفاوضات جادّة بين القوّتين العظميين من أجل وضع حدّ لهذا الخطر المميت. وهنا سعت العقول كلها إلى إيجاد صيغة للتدمير الثنائيّ للأسلحة النوويّة، ولكن ثبت أنّ هذه الثنائيّة غير عمليّة.

وبفضل من الله تعالى، وبعد تأمّل طويل، وجدت الجواب عن هذا السؤال، في درس ديني عالميّ. يقوم هذا الدرس على مبدأ الأخلاق من جانب واحد، وتطبيق الأمر يتطلّب قوّة عظمى واحدة للبدء في تدمير كومة من الأسلحة النوويّة من غير الإصرار على أنْ يتمّ ذلك على أساس ثنائيّ. ومثل هذا العمل من جانب واحد سيوجِد جوًّا قهريًا عند الطرف الآخر، ما سيشعره بعد ذلك أنّه ليس لديه خيار سوى اتّباع النهج نفسه؛ لأنّه سيفقد مبرّر إبقاء الترسانة النوويّة لديه.

لقد أوردتُ هذا الاقتراح أوّل مرّة بشأن اتّباع سياسة الطرف الواحد في الاجتماع الدوليّ الذي نظّمه منتدى نزع السلاح النوويّ الذي عُقِد في 26-30 من يوليو 2001م، في كاندرستيج (سويسرا).

وكانت الفكرة موضع تقدير كبير من السيّد أندريه بايكوف، رئيس المنتدى. وقد جمعتها لاحقًا على شكل كُتيّب ونشرتها. وفي الاجتماع اللاحق للمنتدى الذي عُقد في غابة آشداون (إنكلترا) في سبتمبر عام 2001م، وُزِّع هذا الكتيّب على المشاركين جميعهم. ومعَ الدعم النشيط من السيّد أندريه بايكوف، اكتسبت فكرة السياسة الأحاديّة في نزع السلاح سرعة انتشار واسعة.

وما يدعو إلى السرور والارتياح أنْ بدأت روسيا فعلًا بتدمير تسلّحها النوويّ. وعليه، أصبحت روسيا الأولى في تاريخ التسلّح النوويّ التي تبدأ نزع السلاح عن طريق التخلّص من نحو 100 كغم من البلوتونيوم الفائض من الأسلحة النوويّة، وما يعادل 10 قنابل نوويّة، وأسلحة تملك قوّة تدميريّة تفوق قنابل هيروشيما بـ 100 مرّة. لا ريب في أنّها خطوة حاسمة نحو تدمير أسلحة البلوتونيوم والتخلّص منها في أنحاء العالم جميعها. وعلى الرّغم من أنّ هذه العمليّة يجري تمويلها بسخاء من الولايات المتحدة الأمريكيّة، فإنّ الفضل يعود إلى روسيا لاتّخاذها الخطوة الأولى.

اكتشف السيّد أندريه بايكوف، وهو عالم روسيّ بارز، صيغة لاستخراج البلوتونيوم من القنابل النوويّة ونجح في ذلك؛ ليعاد استخدامها في أغراض بنّاءة. وبهذه الصيغة، نجح في تحويل الأسلحة المدمّرة إلى آلات بناء. وقد كان هذا إنجازًا تاريخيًّا عظيمًا؛ فهو يستحق أنْ يُنْسب إليه الفضل في

إنقاذه البشريّة من الصراعات النوويّة. وفي الوقت نفسه، فقد أثبت أنّ العقل البشريّ لديه القدرة الفريدة من نوعها لتحويل السالب إلى موجب.

يبدو الآن أنّ حلـم البشريّة سيتحقّق، حلم بعالم خـالٍ من النوويّ، سوف يتحقّق في غضون مدّة قصيرة من الزمن. فـإذا كان القرن العشرون قرنًا للحروب والعنف، فالقرن الواحد والعشرون، ومن المؤكد كما يبدو، يمضي على أنْ يكون قرنًا للسلام والسعادة، عالـم جديد يولد. إنّ الجنس البشريّ مرّة أخرى على عتبة عهد جديد.

والآن، أودّ أن أهنـئ السيّد أندريـه بايكوف؛ لأنّه بدأ عمليّـة نزع السلاح النوويّ بنجاح، وهو إنجاز دوليّ عظيم يضاف إلى إنجازاته.

وما بعث على الارتياح الكبير أنّنا استطعنا العثـور على صيغة عمليّة جدًّا لتفادي الحرب النوويّة، التي ألقت بظلالها على الإنسانيّة مدّة طويلة.

لكن أودّ أنْ أغتنم هذه الفرصة لأشيرَ إلى أنّ هناك حقلًا آخرَ أيضًا علينا النظر إليه مع بعثـة السّلام هذه، هـو الإرهاب؛ أي العمـل المسلح من قِبل الجماعات الخاصّة والأفراد. ودعونـا لا ننسى أنّه إذا كانـت قوّة عظمى لا تستطيع تحمّل شنّ حرب لا نهاية لها، فإنّ الإرهابيون يستطيعون ذلك. وهؤلاء الإرهابيون، وهم أناسٌ من أجناس مختلفة، هدفهم النهائيّ ليس بالضرورة الانتصار، بل إنّ الموت هو هدفهـم المنشود. وَوَفقًا لفكرهـم وعلى الغرار نفسه، فإنّهم يعتقدون بأنهم إذا ماتوا في هذا الصراع المتشدّد، فإنّهم سوف يدخلون الجنّة مباشـرة. ولذلك، وَوَفقًا لمعتقداتهم، فـإنّ النصر والهزيمة سواءٌ في نظرهم، وهم يعتقدون بأنّهم الفائزون دائمًا في قضيتهم. وبسبب هذه العقيدة الفريدة من نوعها، يتمكّن هؤلاء الإرهابيين من مواصلة النضال

لأجل غير مسمّى، وجيلًا بعد جيل، ولكنّهم ليسوا متفرّقين عن بعضهم، فهم جزء لا يتجزأ من جيلهم الكامل. وواحدة من نقاط القوّة العظيمة لديهم هي أنّ المسلحين لديهم مصنع فكريّ لغسل دمـاغ شبابهم. وغسل الدماغ هذا هو عمليّة مستمرّة من غير توقف، وهناك دائمًا طابور طويل من أولئك الذين يريدون أنْ يتجنّدوا للاستشهاد.

إنّ الإرهاب الحديث مـن ثَمّ خطر كبير ومستمرّ علـى عالمنا المتحضّر؛ فبعض قوى العالم تشارك في سحق الإرهاب عسكريًّا، ولكنّ العمل العسكريّ وحده لن يكون كافيًا للقضاء على هذه الظاهرة.

والسبب في ذلك هو أنّ الإرهاب في الوقـت الحاضر هو في الواقع تشدّد تدعمه عقيدة. إذن، فالقضية ليست مجرّد سلاح آخر مقابل سلاح آخر، بل هي في الواقع قضيّة سلاح مقابل عقيدة. فالقنبلة قد تواجهها قنبلة، ولكنّ الفكر لا يواجه بقنبلة. ولأجل هـذا، نحن نحتاج إلى عقيـدة سلام. لذلك، علينا صياغة مثل هذا العقيدة لنستبعد مفهوم أنّ أيّ شيء قد يكون مقبولًا عن الإرهاب، وهذا يستدعي إعادة تكييف فكريّ للإرهابيين، ومعنى هذا أنّ علينا التخلّص من عقيدة الإرهاب التي تُفعّل عقول المتشددين، وتأثير هذا سيكون مثل نزع فتيل قنبلة. ومعَ هذه الغاية بالـذات في ذهني، فقد نشرت ثلاثة كتب، هي: **الجهاد الحقّ، والإسلام والسّلام، وعقيدة السّلام** ، التي تهدف إلى اقناع المتطرّفين من المسلمين بقبول أكثر الحلول سلامًا. وبعد تجربتنا الناجحة لنزع السلاح النوويّ، يجب علينا أنْ نتقدّم الآن لفتح جبهةٍ لتحييدٍ فكريّ لخطر الإرهاب، وآمل أن يكون النجاح حليفنا في تحقيق هذه المَهَمَّة الأكثر إلحاحًا.

الفصل العاشر: مركز السّلام الدوليّ

لقد أصبح إرساء السّلام أوّل أولويّاتنا، وفي الواقع، فإنّه الحاجة العظمى في نظرنا؛ فقد جعلته ظروف الوقت الحاضر عاملًا حاسمًا في بقاء الإنسان على قيد الحياة. لكنّ نشر المناشدات لدعم السّلام أو تفجير مخابئ الإرهابيين ليست الطريقة لإنشاء ذلك السّلام. والحقيقة هي أنّ الإرهاب في العصر الحاليّ يختلف عنه في المرّات السابقة؛ فالمسألة ليست مسألة من يمتلك أسلحة متطوّرة، وتقانة فتاكة، بل هي مسألة عقيدة مقابل تقانة حديثة؛ لأن الإرهاب لديه عقيدة كاملة، لتقديم الدعم للإرهاب، ولن يتوقف الإرهاب ما لم يُقض على هذه العقيدة، فهي سوف تستمرّ على نحو أو آخر.

وبسبب خطورة هذه المشكلة التي لا يمكن إنكارها، فقد أصبح من الضروريّ إنشاء مركز دوليّ للسلام في موقع تنسيق مركزي، وسيهدف هذا المركز إلى توحيد محبّي السّلام في أنحاء العالم كله، من خلال جهود أدبيّة ووسائل أخرى لتعزيز السّلام، والأهمّ من ذلك كلّه أنّه سيجلب للناس عقيدة مستدامة للسلام. وباستخدام مجموعة واسعة من الاتصالات الحديثة، فإنّها سينشر ثقافة السّلام على المستوى العالميّ، وسيُقضى على عقليّة مقاومة العنف بالعنف، وسوف تسلّط الضوء على أهميّة السّلام مقابل العنف.

سيكون مركز السّلام الدوليّ مصنعًا للسلام؛ حيث ستُصنّع (قنابل) روحانيّة، وستبقى هذه القنابل تمطر روحانيّة السّلام في أنحاء العالم جميعها من أجل إطفاء الحريق العالميّ الذي يشتعل بسبب العنف والإرهاب.

والحقيقة هي أنّه لو كان من الممكن وضع نهايـة للإرهاب الحديث بقوّة البندقية أو القنبلة، لكان هذا قد تمّ فعلاً. المشكلة الفعليّة هنا لا تكمن في كيفيّة وضع حدّ للإرهاب الحديث عن طريق الكفـاح المسلّح؛ فقد تمّ فعلاً استخدام القوّة المسلّحة على نطاق واسع، ومع ذلك، فإن خطر الإرهاب لم يُقتلع. لذلك فإن المسألة لا تتعلق بتكرار هذه الطريقة العبثية، وإنما في أنْ نغيّر استراتيجيّتنا لمكافحة الإرهاب في ضوء الخبرة السابقة.

وهذا التغيير قد يعني استخدام (القنابل) السلميّة بدلاً من القنابل العنيفة، وسوف يعمل المركـز الدوليّ للسلام حينئـذ باسم المصنـع العالميّ الذي ينتج هذه (القنابل) المسالمة والروحانيّة. وليكون فاعلاً حقًّا، لاينبغي لهذا المركز أن تكون منظمة غير سياسيّة أو عسكريّة بالكامل؛ فأيّ نوع من التدخّل السياسيّ أو العسكريّ ستكون نتائجه عكسيّة. وبذا، فإنه لا يمكن تحقيق هدف السّلام إلا من خلال الوسائل السلميّة، لا العنيفة.



لقد ظل السلام أمرًا مطلوبًا لذاته على مر العصور، وشرطًا لتحقيق التقدم البشرية، وما حدث في عصر السلاح النووي الحالي، أن السلام أصبح مسألة حياة أو موت بالنسبة للإنسانية، فالسلام يعني الحياة وانعدامه يعني أن لا أمل في بقاء البشرية.

يرى الكاتب أن إرساء السلام هو البديل للقناع النووي، ما يفتح أبواب الحياة أمام الفرصة الممكنة كلها للعمل الايجابي قد تبدو الدعوة شبهة بإزالة سد من أمام النهر، فالحياة، مثل نهر متدفق، تظل مندفعة إلى الأمام يحركها زخم الطبيعة الإنسانية، ولا تتوقف إلا عندما تعترضها سدود الحرب والعنف المصطنعة.

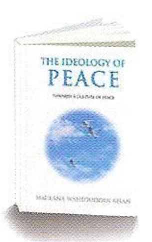
وهو يؤمن أن السلام، على عكس الحرب، يوجد الظروف التي تمكننا من العمل لتحقيق الأهداف البناءة والسعي وراء العدالة من دون عوائق، كما تعتقد أن السلام هو أكبر محفز ومثير لتدفق الأنشطة البشرية المفيدة واستمراريتها.

وعليه، فإن الكاتب يهدف إلى تقديم السلام في صورة عقيدة كاملة – عقيدة توقظ ضمير البشر ما يعطي حلولًا لمشكلات الحياة جميعها، وتؤكد على نشر السلام وأهميته القصوى بالنسبة للفرد والعالم، ويؤكد الكاتب على فكرة أن السلام ليس مجرد خيار وإنما هو مصير.

عن المؤلف

يرأس وحيد الدين خان حاليًا المركز الإسلامي في نيودلهي، وهو مؤسسة مكرسة للتعريف بالإسلام من منظور عصري.

للمؤلف كتب عديدة منها: الجهاد الحق، إعادة اكتشاف الإسلام، والإسلام والسلام، وعدة مؤلفات من بين أكثر الكتب مبيعًا.



عقيدة
السَّلام

السلام هدف غال ورغبة أكيدة تتطلع إليها البشرية في تلهف وتشوّق، ولا يدرك قيمة السلام الحقيقية إلا من عاش الحرب واكتوى بنارها، ورأى وسائل الدمار والخراب، وهي تنشر الرعب بين الأبرياء، وتهدم المنشآت، وتهلك الحرث والنسل.

ودين الإسلام الذي ينشد السلام ويؤمن به ويحض عليه، وينادي بتعميمه، لا يؤمن به إيمان من يتحدث عنه ويردده للتمويه وذر الرماد في الأعين، بل هو عنده عنوان وشعار يردده المسلمون في العبادة وفي التحية وفي كل آن وفي كل مكان.

عقيدة السلام معناها أن لا أحد يهين كرامة أحد، ولا يستعبد إنسان أخاه الإنسان؛ عقيدة السلام في الحرب هو لتحرير العباد من أئمة الإجرام والضلال؛ بيد أن السلام في الإسلام هو الأصل، ولا يُلجأ إلى الحرب إلا لمنع الاعتداء ورده، ودرء الفساد ووأده، بل يصرح كتاب الله تعالى بأن الثمرة المرجوة في اتباع الإسلام هي الاهتداء إلى طريق السلام، ويفهم ذلك من قول الله عزوجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ISBN: 978-603-503-525-5



موضوع الكتاب:
الإسلام - مبادئ عامة